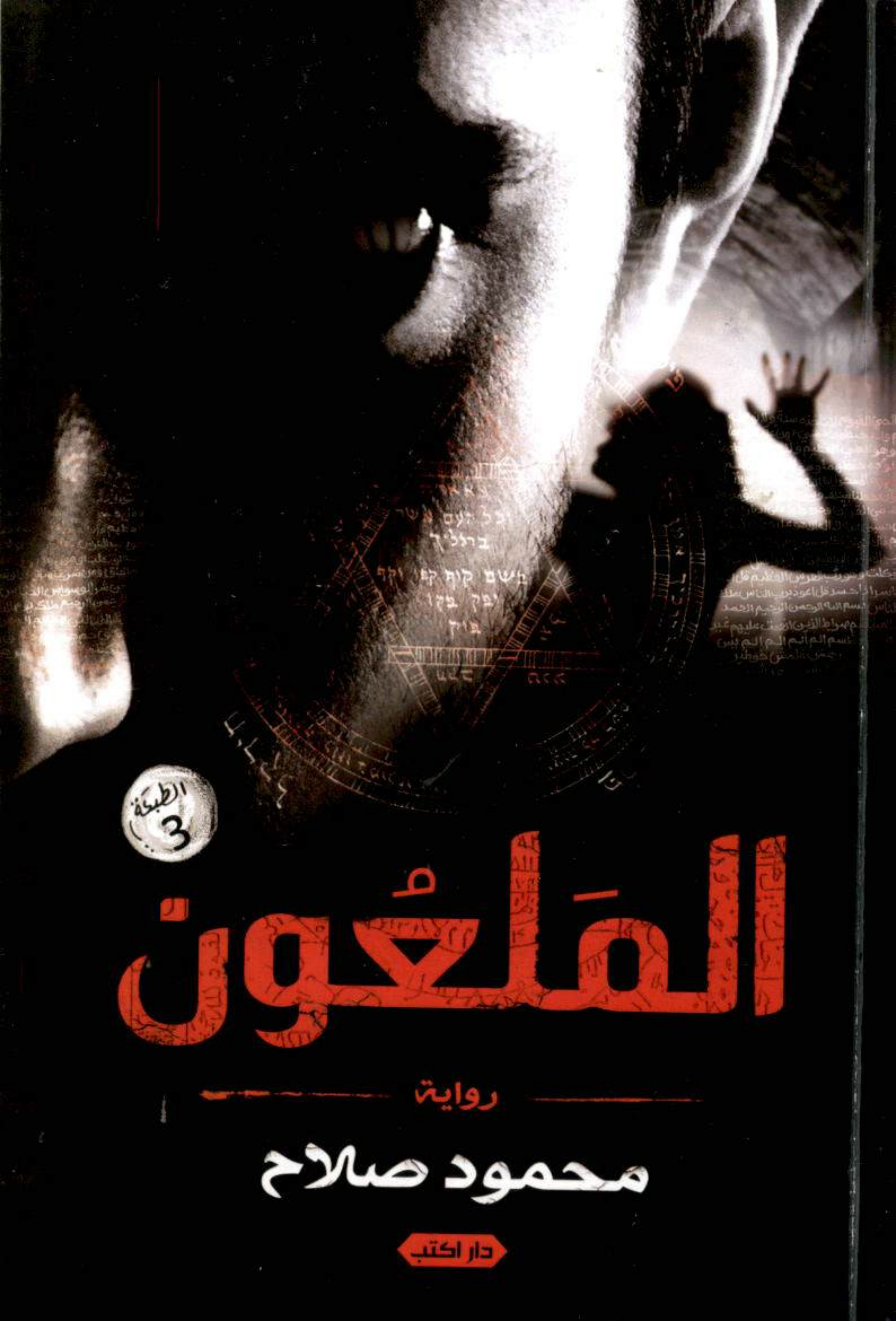
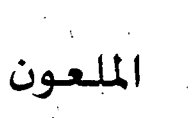


الطبعة 3
المَلعُون
رواية
محمود صلاح
دار اكتب

٢٣٧٨٥٦



الملعون

الملعون

محمود صلاح
الطبعة الثالثة ، القاهرة 2017م
غلاف : أحمد فرج
تدقيق لغوي : خالد المصري
رقم الإيداع : 27639 /2016
I.S.B.N: 978-977-488-499-3

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01144552557

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

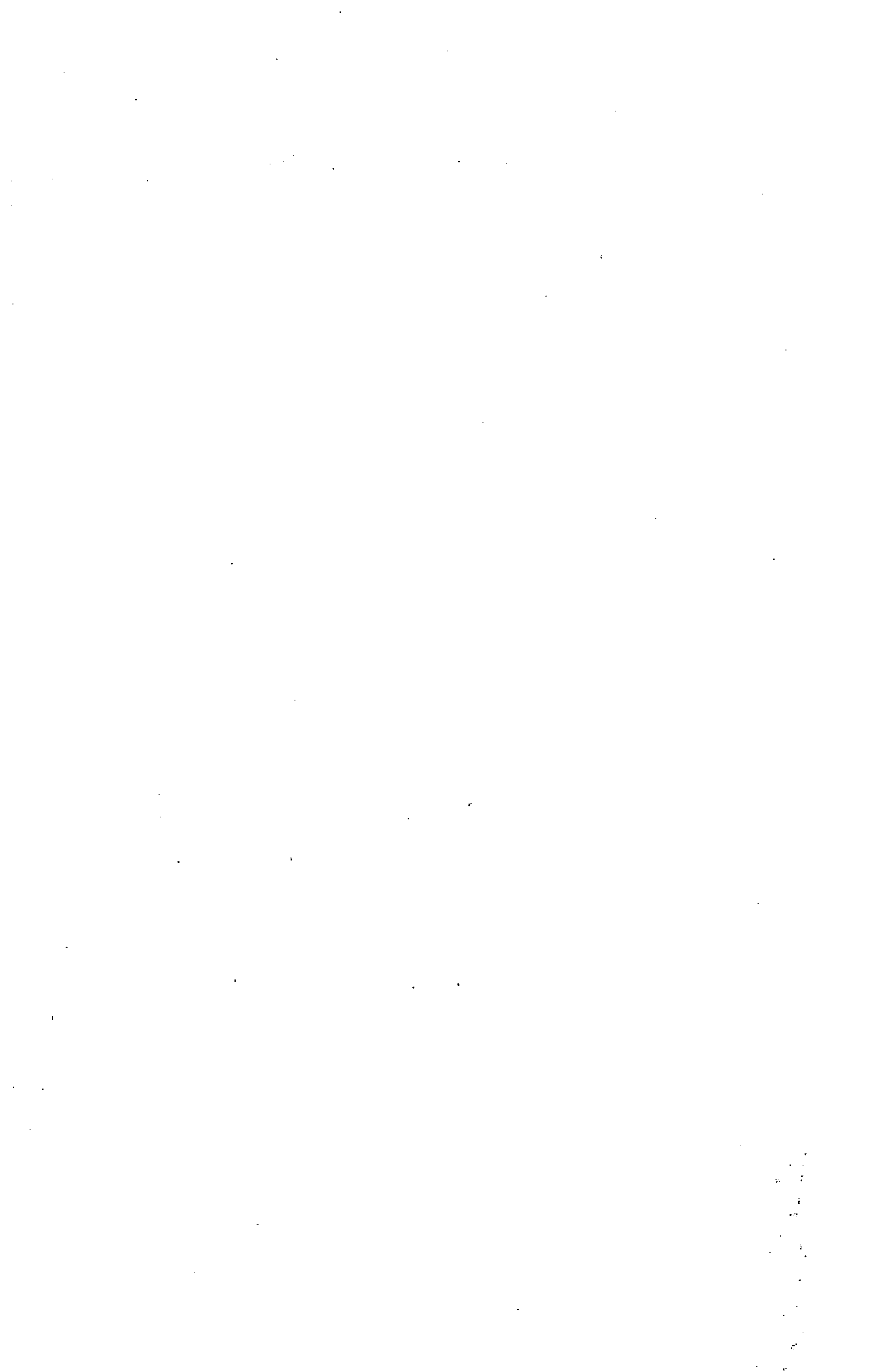
الملعون

رواية

محمود صلاح



دار اكتب للنشر والتوزيع



الموجة الأولى



كلٌّ منا كان ينظر للآخر برعبٍ..

كلٌّ منا كان غير مصدق لما يحدث..

أصوات غريبة تتعالى من كل الاتجاهات..

أصوات ليست بشرية على الإطلاق..

محمد يُحدِّق في الغرفة برعب غير مصدق لما شاهده منذ لحظات، وليد ينتفض بعنف، وكأن ألف ألف صاعقة قد ضربته منذ لحظاتٍ..

أما أنا فقد كان شعوري هو مزيجًا مخفوقًا من الفزع، والحسرة وعدم التصديق.

أعتقد تمامًا أنني المسئول الأول، والأخير عمَّا حدث ويحدث، ولكنني لم أكن اتخيل لوهلة أن تتطور الأمور لذلك الشكل المفزع.

على أحد ما أن يكسر جدار الصمت الثقيل الذي يلتف ليُطبق براثنه علينا.

أخيرًا تحدّث محمد، وهو يُجفّف قطرات العرق عن جبينه.

- أنا عاوز أمشي من هنا.

ينظر له وليد بتلك النظرة الغريبة التي تملّكته منذ بدأت تلك الأحداث الغريبة في الحدوث، ويشيح بوجهه بعيدًا بدون أن يُبدي أيَّ نوع من الرد سواء بالموافقة أو بالرفض.

كنت أنظر لأصدقائي غير مصدق لما حدث لنا منذ لحظات قليلة، فما حدث بالفعل كان يُنافي كل الأمور المنطقية التي درستها أو قرأتها في حياتي..

وللحظة تذكّرتُ بداية تلك الأحداث الغريبة، تلك الأحداث التي تسببّتُ فيها بشكلٍ أو بآخر.

فأنا كل ما فعلته أنني قد وافقتُ على القراءة في تلك الكتب الغريبة التي أحضرها لي صديقي عبد الله. تلك الكتب التي لم

أستطع أن أمنع نفسي الخوضَ أكثر وأكثر فيها. لقد كانت الكتب مثل الفخ الذي ينتظر حتى تضع قدمك فيه لكي يُطبِق عليك تمامًا، وحينما يحدث ذلك فإن محاولة الخروج منه تساوي صفرًا.

كنتُ مدفوعًا بتلك القوة الكارثية المُسماة بالفضول، نعم كنتُ بالفعل متشوّقًا للغاية للحصول، وبنهمٍ على تلك المعلومات الغريبة المكتوبة بخطوط بشرية عن كل أساليب تحضير الجن.

كذلك، ولأول مرة وجدتُ كتبًا أخرى ورثها عبد الله عن والده تحكي عن أسماء الشياطين، وعن أهمية استقدام الشياطين في خدمة البشر.

كان من المفروض أن أقرأ كل تعويذة، وأكرّرها عددًا من المرات لكي يحدث الحضور،ولكنني كنت بالفعل أُحاولُ السيطرة على فضولي، وخيرًا فعلتُ أنني لم أكن أُكرّر أيَّ تعويذةٍ حتى لا يحدث ما لا يُحمد عُقباه.

كان ثلاثتنا في منزل عماد. تلك الشقة الخاوية التي بدأت فيها كل الأحداث، حيث كنا نتجمع باستمرار..

أنا وعماد وعبد الله وسمير..

كنا نتجمع بشكل شبه يومي حينما أنتهي من عملي في الجريدة. تبًّا! لقد نسيتُ أن أخبركم بعض المعلومات المملة عني.

أنا نادر زهران صحفي في إحدى الجرائد التي تصدر مرة كل قرن من الزمن، تخرّجتُ في كلية الإعلام، وكان حلمي أن أكون شخصية مشهورة، وكانت لي هواية غريبة إلى حدٍّ ما رافقتني منذ الصغر، وهي البحث في كل الأمور الغريبة وما وراء الطبيعيات.

كنتُ عكس كل الأطفال هم يبحثون عن لعب كرة القدم وأشياء هي في وجهة نظري تافهة، أما أنا فكان كل هدفي هو معرفة المزيد والمزيد عن ذلك العالم الخفي، معرفة المزيد عن كل الأشياء المخيفة والمرعبة، معرفة المزيد عن عوالم أخرى أنا متأكد تمامًا من وجودها، حسنًا أنا في وجهة نظرهم مجنون، ولكنني في الحقيقة مستمتع برغبتي الجارفة في المعرفة.

أبحث هنا وهناك عن كل القصص والكتب الغريبة. عم محمد ذلك المكوجي العجيب، هكذا أطلقتُ عليه، فلأول مرة في تاريخ العرق البشري نجد مكوجيًّا مثقفًا لهذه الدرجة، وبجوار عمله في كي الملابس كان يمتلك مكتبة أكثر من رائعة. إنه كنز بالنسبة لشخص مثلي.

ومع مرور السنوات اكتسبت خبرات لا بأس بها في تلك الأمور الغريبة إنها هوايتي ومتعتي الوحيدة، هذا يكفيكم لتتخيلوا نوعية الشخص الذي يقوم بسرد هذه القصة.

هي تلك الليلة الممطرة..

أنهيتُ عملي، وكالعادة توجهتُ إلى الشقة؟ ليست شقتي بالطبع إنها شقة عماد أو لنقل المقر الدائم لتجمعنا.

عماد لديه محل صغير للبقالة يُنهي عمله، ويصعد لنتقابل كل يوم كعادتنا.

عبد الله توقَّف عن العمل منذ أيام بسبب شعوره بالإجهاد.

سمير لدى والده مقهى هو يديره، ويطمح في يوم من الأيام أن يكون المقهى مُنافسًا لمقهى أشرف عباس، بالتأكيد تعرفون أن مقهى أشرف عباس هو الأشهر في منطقة شبرا، معلومة واضحة كالشمس.

- منورين يا رجالة.

يقولها عبد الله وهو يوزع علينا السجائر.

يتناول منه عماد السيجارة، ويُشعلها بنهمٍ لتبرز أسنانه الصفراء. ذكّروني أن أُلفت نظره إلى أنه لم يغسل أسنانه منذ أن ترك الملك فاروق حكم مصر.

عماد موجهًا حديثه لعبد الله:

- إلا قولي يا عبد الله هو انت مش بتروح الشغل ليه؟! مكفاية دلع بقى.

ينظر له مصلح، وهو يمرر أصابعه على لحيته التي بدأ الشعر الأبيض يغزوها.

- إنت عارف أنا بقالي قد إيه بشتغل يا عماد؟ بقالي 15 سنة شغل شغل لما الواحد زهق، اصبر انت بس هيا خبطة الآثار دي تيجي، وأنا أخليك أغنى واحد في شبرا.

- إفضل انت ورا موضوع الآثار ده لما هيتخرب بيتك، وهتتجنن.

قالها له عماد، وهو يصب أكواب الشاي.

فجأة نظر له عماد:

- إلا قولي يا مصلح مش انت قولت إن ابوك بعد وفاته سايب لكم كتب كتيرة، وانت عارف، وانا عارف إن ابوك كان ليه في شغل العفاريت، والتحضير والكلام ده؟ متجيب الكتب دي ويمكن نلاقي فيها أي حاجة ولا خريطة كنز، أكيد ابوك سايب لكم حاجة، دا لسه الناس بتحلف باللي كان بيعمله.

ينظر له عبد الله بتركيز:

- تصدق يا عماد عندك حق، أنا نسيت حوار الكتب دي خالص، الكتب دي ممكن تساعدني ألاقي حل لموضوع الآثار، وأهو نادر معانا يقرالنا وربنا يكرم*.

- ينظر له عماد بغيظ:

- آثار تااااااااني، أنا غلطان إني فكّرتك، والله.

- أنا هروح أجيب الكتب.

وهكذا انطلق عبد الله ليحضر الكتب.

أما أنا فكان هناك شيء ما يساورني.. لا أعلم له تفسيرًا، وإن كنت سوف أعلم بعد قليل بالتأكيد.

عاد لنا عبد الله بعد دقائق ممسكًا بكيس بلاستيكي أسود كبير.

نظر له سمير الذي جاء منذ لحظاتٍ ضاحكًا:

- إيه يا عم كيس الزبالة اللي انت جايبه ده؟

---

* ملحوظة سخيفة لا بد منها.. عماد وعبد الله وسمير لا يجيدون القراءة.

نظرت له بقسوة، وكذلك فعل عماد، وابتلع سمير باقي ضحكاته.

في تلك الغرفة كنا نجلس،وأمامنا ذلك الكيس الأسود الكبير.

ننظر له في ترقب. أخيرًا تجرّأتُ، وقمتُ لأفتح ذلك الكيس، وبمجرد أن لمستُه شعرتُ بذلك الإحساس الغريب، إحساس برهبةٍ لم أتذوّقها منذ فترة طويلة.

نظر لي عماد:

– متفتح يا عم نادر.

بالفعل فتحت الكيس الأسود لأجد بداخله كيسًا آخر من القماش.

نظرت ناحية عبد الله مستفسرًا:

– والله أنا جيبته كده، ولا حد قربله من يوم ما أبويا مات.

– يادي الليلة السودة ابقوا صحوني لما تخلّصوا هو يوم مش هيعدّي.

قالها سمير، وهو يعطينا ظهره، ويضع الغطاء عليه.

وضعتُ يدي لأخرج ذلك الكيس القماشي، وبالفعل أخرجته، كان كبير الحجم، وعلى الكيس كانت رموز غريبة مكتوبة بألوان سوداء، ورموز أخرى مكتوبة بألوان حمراء قاتمة.

كلٌّ منا كان ينظر للآخر محاولين بث الشجاعة في أنفسنا.

هكذا فتحت الحبل المربوط به الكيس القماشي وبمجرد أن فتحتُ ذلك الحبل اندفع تيار من الهواء البارد في وجوهنا، ومعه ارتطمت ضلفة البلكونة بالحائط في عُنف.

قام عماد وأغلق البلكونة جيدًا:

– عادي عادي مكانتش مقفولة كويس يالا يا نادر كمل.

وضعتُ يدي داخل الكيس لأُخرِجَ أول شيء منه، وكان عبارة عن كيس صغير وبه عدد من أنابيب الاختبار الموجودة في عيادات الأطباء، ما الذي تفعله أنابيب اختبار في مقتنيات والد عبد الله؟

الشيء الثاني كان كيسًا آخر به مجموعة من الكتب، أخرجتُ تلك الكتب المملوءة بالأتربة، ووضعتُها على الأرض أمامنا.

كتب غريبة الشكل لم ترَ عيناي مثلها من قبل. كتب ليس لها عنوان ولا دار نشر.

أمسكت بأول كتاب، وهو أكبرها، وبدأت أقرأ بصوت حتى يستطيع عماد وعبد الله فهم ما بالكتاب* من يد عائلة السيد المزروعي بن المغيث إلى يد عائلة العريبي محمد النقلي إلى يد عائلة عدد كبير من العائلات تتوارث ذلك الكتاب؟ مُقدمة غير متوقعة.

أكملتُ القراءة:

– بسم من انشقت له الأرض والسماء، بسم من بيده كل شيء، تم نقل الكتاب بمحتوياته إلى هذا الكتاب، ككتاب أول وفيه نستمر في عرض أساليب التشنيع بالجثث، وعرض أهم طرق استحضار من له سلطان على خدمه حامل الكتب وصاحب السلف، الأقرب والدم الأنقى، وجلبه وإجباره.

كنتُ أقرأ الكتاب وأنا أرتجف حقًّا، كنت أرتجفُ أنني أمام كتاب لم أقرأ مثله من قبل. عبد الله وعماد ينظران لي حتى أكمل القراءة،وصوت أنفاس سمير مع أصوات الرياح والأمطار بالخارج تعطي انطباعًا قوطيًّا مهيبًا للحدث.حسنًا، سوف أكمل:

---

* ملحوظة مهمة للغاية..عماد ومصلح وسمير لا يُجيدون القراءة والكتابة. هل قلتُ ذلك سابقًا؟ حسنًا، أعتذر، أعتذر، لا تُغلق الرواية، ولا تَسُبَّ الكاتب فلا ذنب له في ذلك.

- اليوم الثالث عشر من الشهر المذكور أعلاه صورة لمثلث، وبداخل المثلث أرقام مقلوبة، يبدأ الاستحضار بتحديد ملك ذلك اليوم، وكذلك تحديد الملك المطلوب منه المساعدة، فلو كانت الجثة المراد العمل عليها أكبر من الثلاثين عامًا تربيعيًّا؟ فالاستحضار سوف يكون بتلك الطريقة:

أولًا نقاط مهمة للوخز في الجسد خلف شحمة الأذن، وفي نهاية العمود الفقري للجسد. تُوضع الإبرة المقروء عليها هان هان هان يكونون فارين من علم لا بد لهم منه، ومن خلفه يتواثبون يتواثبون عطاء عطاء واخد وكفاء واخذ وكفاء.. إلى آخره، ثم تقوم برسم الدائرة المقلوبة على ظهر الجثة وتضع فيها أسماء الخدام الآتية (سلاميل - سولطج - فرواخ - عسمائيل)، وتُدفن الجثة في مكانها لعدد ثلاثه أيام كاملة مع الانتباه أن في كل يوم وعند انتهاء القمر يجب الالتزام بعمل الأشياء المتفق عليها. من ترتيلات مقدسة باسم ملك كل يوم.

حتى اليوم الأخير ومعه تستطيع إخراج الجسد الذي سوف تجده أصبح طريًّا مرة أخرى استعدادًا للحدث الأكبر.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إيه ده؟

قالها عماد مقاطعًا:

- كفاية يا عم دا كُفر بالله، جُثث إيه، وفرواخ إيه يا عم نادر، كفاية يا عم دا كان يوم اسود يوم مطلبت من عبد الله يجيب الكتب.

- اصبر بس يا عماد خلي نادر يكمل. وادينا بنتسلى.

قالها عبد الله، ولو كان يعرف ما سوف يحدث لما طالبني بالاستمرار نهائيًا.

- حسنًا، أكمل.

- أجزاء أخرى من الكتاب: أساليب التشنيع باستخدام التعاميم، استحضار الأبدان وجلب قرين الإنس والجان، تقديس ملوك الأيام والأسابيع والشهور والسنين.

كلها عناوين كنت أقوم بقراءتها بدون الخوض في التفاصيل حتى وصلت إلى جزئية مهمة، وهي في الفصل الأخير من الكتاب، طُرق فتح الأبواب المخفية بين الإنس والخلق الآخر من الجن والشيطان. هنا انتصب شعر جسدي من الخوف بالفعل، وحينما نظرتُ إلى عبد الله وعماد كانا بالفعل في نفس حالتي وربما أكثر.

هل من الممكن أن يكون المكتوب حقيقيًّا؟ هل من الممكن فتح تلك الأبواب بين الإنس والجن. وكذلك الشياطين. الحقيقة إن رغبتي وفضولي دفعاني للإكمال وهكذا فعلت.

- لن اشرح بتفصيل للموجود بالكتاب وإنما سوف أكتفي ببعض الفقرات المهمة في ذلك الجزء.. إن أبواب الجن وأبواب الشياطين موصدة، ويجب عليك تحديد هدفك من فتح ذلك الباب، وهل سوف تقوم بفتح باب للجن لم للشياطين؟ طرق فتح الأبواب بين العالمين الإنس والجن.

في اليوم المنشود يتوضأ الشخص، ويجلس مدة خمس ساعات مع مراقبة حركة النجم المراد فتح الباب من ناحيته. وتقوم بالآتي:

فتح كتاب رقم 4 على اسم باب النجم، وكذلك قراءة الآتي مع تكراره خمس مرات: سناغ سناغ يامن تملك وهب، أعطيناك فأعطنا أعطيناك فأعطنا أعطيناك فأعطنا، افتح لنا بعظمتك ذلك الجدار لنكون لك عبيدًا، وأنت سيد القرار. الساه التيعا التيعا مزيان مزيان كما كانوا وكما كان. وال...

وقبل أن أُكمل كلماتي انطفأت الأضواء فجأة.

أشعل عماد القداحة ليتراقص على وجوهنا لهبُها.

- من زمان النور مقطعش.

قالها عبد الله الذي بدا شكله مرعبًا على ظلال اللهب.

- طب إيه رأيكم نكمل وقت تاني؟

قالها عماد..

أنا أشعرُ بالخوف الذي يعتري الجميع، وأنا أولهم.

- مش هينفع نمشي لأن سمير نايم، وحرام يترل في البرد ده. نصبر شوية، وإن شاء الله النور ييجي، وأدينا قاعدين يا عمدة، إنت قلقت ولا إيه؟

- قلقت قلقت من إيه؟ دا كل الكتب دي تخاريف، ولا تخوّفني، ولا تهز شعرة مني.

لم يكد يُكمل عماد كلمته حتى سمعنا صوت تلك الطَّرقات هناك أصوات طرقات تأتي من الغرفة المجاورة.

الأصوات تتعالى، ننظر لبعضنا البعض في ذُعر حقيقي، فالكارثة أن الشقة بأكملها فارغ، ولا يوجد أحد فيها سوانا.

- أعوذ بالله.

ننظر لبعضنا البعض مرةً أخرى بنظرات يملؤها الخوف.

- طب أنا هقوم أشوف في إيه في الأوضة التانية؟ يمكن الشباك مفتوح، ولا حاجة.

قالها عبد الله، وهو يشعل قداحته.

- استنى أنا جاي معاك.

قلتُها لعبد الله.

- إنتوا هتسيبوني لوحدي؟ أنا جاي معاكم.

هكذا تحرّكنا كلنا معًا إلى الغرفة المجاورة لنا،أصوات الطرقات ما زالت مستمرة، الرياح تلعب دورها ببراعة، باب الحجرة مغلق. إنه كذلك من فترة طويلة، عماد متحدثًا، وهو يحاول فتح الباب:

- الأوضة دي مقفولة من زمان، وفيها كراكيب.

كان يحاول فتح الباب مرةً ومرةً وأخيرًا طاوعه الباب، وأصدر ذلك الصرير المزعج.

حجرة مليئة بكاوتش السيارات، ودولايب قديمة أما المثير فإن النافذة مُغلقة، وبإحكام.

أغلقنا الحجرة، وتأكدنا أن النافذة موصدة بإحكام، وقرّرنا العودة لغرفتنا.

تسمّرنا جميعًا لحظةً.. فأصوات الطرقات عادت مرى أخرى.

- يمكن دي أصوات من السطح مانتم عندكم معيز، وخرفان يا عمدة يمكن بيلعبوا ولا حاجة.

كان عبد الله يُوجِّه حديثه إلى عماد الذي كنتُ أُشفق عليه من تلك الأجواءِ التي تليق بفيلم رعبٍ حقيقي.

وأمام الغرفة التي كنا نجلس فيها منذ لحظات، وقبل أن نخطوا خطوةً واحدة وعلى أضواء اللهب المُتراقص من قداحتنا كان سمير يجلس نصف جلسة،ويتمتم بكلمات غريبة:

سحاقيل ضارين حقان حقران، ويضحك، نعم كان يضحك بشدة، ثم صمت أخيرًا وعاد مرةً أخرى ليُكمل نومه.

هكذا وبكل بساطة.

لن أحكي لكم عمَّا نشعر به الآن.

- الكهربا رجعت تاني الحمد لله.

عماد، وهو يلتقط أنفاسه.

- الحمد لله.

- يالا نكمل يا نادر.

قالها عبد الله، وهو يناولني الكتاب مرة أخرى.

الحق يُقال إنني بالفعل أتمنَّى أن أُكمل، وسوف أُكمل.

- طب هو الواد سمير ماله؟

قالها عماد، وهو ينظر إلى سمير المُمدد أمامنا، وأصوات أنفاسه تتعالى بإيقاع رتيب.

رد عليه عبد الله وهو يضع البطانية على سمير:

- يمكن بيتكلم، وهو نايم عادي، على فكره في ناس كتير بتعمل كده.

نظرتُ له فوجدته يغمز لي بما معناه أن أصمتَ حتى لا يخاف عماد أكثر وأكثر، ولكن المشكله الحقيقة أن الأسماء التي قالها سمير وهو نائم لم اقرأها عليهم على الرغم من وجودها في إحدى صفحات الكتاب التي مررتُ عليها منذ قليل. لن أخبرهم بذلك، وليكن ما يكون*.

* هل أخبرتكم من قبل أن عماد وعبد الله وسمير لا يُجيدون القراءة والكتابة؟ كم هم محظوظون.

- يالا يا عمدة اعملنا دور شاي الجو برد، ولسه إحنا قاعدين.

عبد الله يقوم بصب الشاي، وعماد يُشعل لفافة تبغ له، ولعبد الله ويُلقي لي بواحدة.

- كمل بقى يا نادر.

- ماشي يا عبد الله هكمّل بس هسيب الكتاب ده شويه، وأشوف الكيس فيه إيه تاني؟!

بالفعل أفرغتُ محتويات الكيس كاملة أمامنا. كتبًا بأحجام، وألوان مختلفة، حُقنًا زجاجية، سماعة طبيب، أشياء معدنية مُغلقة على أشكال مثلثات، ومربعات، وأوراق صغيرة مطوية بعناية مصفرة تمامًا نظرًا لقدمها، وعلى كل ورقة مطوية هناك رقم.

أما ما لفتَ نظري فهو ذلك الكتاب ذا الغلاف الأسود، غلاف أسود فقط. لا توجد معلومات عن أي شيء أو حتى مجرد إشارة إلى من قام بكتابة هذا الكتاب.

كتاب آخر يبدأ فيه الحديث عن إخضاع القرين، وسلسلته، وأيضًا جعله كخادم مطيع للبشر. معلومة مثيرة لا أعرف مدى صحتها، إن الإنسان له قرينان أحدهما من الجن، والآخر من الشياطين.

أصوات الرياح تتعالى في الخارج، وكأنها تُحذّرنا مما نحن مُقدِمون عليه.

عنوان داخل الكتاب يحمل اسم (إخضاع القرين الشيطاني)، وبما أنك تريد إخضاعه فيجب عليك الإصرار على استكمال سلب إرادته من خلال تلاوة أسماء أقرانه، ويجب الالتزام بترتيبهم كالتالي: (مندون – هاصيل– مكنوح– خفاهيل)، كلٌّ منهم يتم ذِكْرُه في الأوقات الموكلة له مع إحضار أي روح، ويُفضل الأرانب وذبحها وغمس ورقة مكتوب بها أسماء هؤلاء الخدام بها، والانتظار حتى ظهور الأبخرة من الدماء التي غُمست بها الورقة. بعدها سوف يحضر إليك خاضعًا يرجو رحمتك، وإذا أردت صرفه فعليك بالتالي: أولًا ترديد:

يا من جاء وحضر ووكلتك ولم تتأخر آمرك بالانصراف. بحق علسان الزاهوري ومن يملكون روحك بيمينهم اذهب حتى أستدعيك.

ثانيًا: إفراغ الدماء التي سبق أن استخدمناها في الخلاء أو رميها حيث لا يستطيع أحد أن يصل إليها.

– كفاية كفاية يا نادر أنا تعبت تعبت بجد.

قالها عماد، وهو ينتفض بشدة.

- خلاص مش قادر أسمع حاجة تانية، خدو الكتب دي من هنا مش عاوز أسمع شيء تاني. عاوزين تسمعوها مني. حاضر أنا خايف فعلًا خايف من اللي بسمعه ده. أقولكم أنا هنزل وكملوا انتو اللي بتعملوه، وابقوا صحوا سمير وانتو نازلين. سلام.

بالفعل قام عماد منتفضًا، وغادرنا وذهب، لم يتبقَّ سواي أنا وعبد الله.. هل نكمل؟ الحقيقة أننا كنا مدفوعين بتلك الرغبة الجارفة في معرفة ماهية الأشياء الموجودة أمامنا ولكننا قررنا أن نكتفي.

هكذا أيقظنا سمير، وقمتُ بوضع الكتب، والأشياء الأخرى في الكيس الخاص بهم، وأعطيتُ عبد الله إياها حتى يأخذها معه، ولكنه لم يوافق على ذلك.

- إزاي هرجع بيهم البيت، وإخواتي أساسًا ميعرفوش إني واخد حاجات أبويا..خلّيهم معاك إنت لبكره،وابقى هاتهم معاك، وانت جاي بليل.

هكذا أصبحتُ مُلزمًا بأن تكون تلك الأشياء الشنيعة في منزلي للغد.

تركتُ سمير، وعبد الله وعدتُ إلى منزلي، وأنا غير مصدق تلك الأحداث التي حدثت منذ أحضر عبد الله تلك الكتب إلى منزل عماد

إنها الثانية صباحًا.. أشعر بالجوع.. الفول بالزيت الحار من عند عربية حسين هو الحل الأمثل، فمنذ غادرتْ والدتي إلى السعودية لتستقر مع أختي، وأنا أعيش بمفردي، هكذا انتهيتُ من وجبتي وعدتُ إلى منزلي مُحمَّلًا بتلك الأشياء التي أعطاني إياها عبد الله.. هو وقت النوم.. هذا ما كنت أنتويه.

بمجرد أن وضعتُ رأسي على الوسادة انطلق عقلي يعمل بكامل طاقته ليستعيد كل تلك المعلومات الغريبة التي قرأتها اليوم. هل بالفعل هذه الكتب خطيرة؟ هل بالفعل الإنسان له قرينان أحدهما من الجن والآخر من الشياطين؟ كنتُ أتذكَّر كل ذلك حتى غفوت.

هناك شيء ما ينظر لي.. هل تعرف ذلك الإحساس الذي تشعر به حينما ينظر به أحداهما إليك، وأنت نائم ويُجبرك على الاستيقاظ؟ هو نفسه ما أشعر به الآن.. نظرت بجواري فلم أجد شيئًا. إنها الرابعة صباحًا.. هذه الليلة لا تنتوي الرحيل.

هل أسمع طرقات؟ إنها نفس الطرقات التي كنا نسمعها في منزل عماد.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إنني متأكد من أنني سمعت صوت طرقات، صه، هناك صوت أنين يتصاعد من الغرفة المجاورة.

أصوات الرياح،والأمطار في الخارج ما زالت تعمل كموسيقى خلفية مفزعة.

- ناااااددددرررر..نننناااااااااددددرررر.

شيءٌ ما يُنادي باسمي بشكل رتيب وممطوط نننناااااااددررر.

دقاتُ قلبي تزداد لتقارع الطبول الأفريقية في جزر الواكيني.

لا تسألني عن تلك الجزر، ولكن كل تلك الجزر تتشابه في تلك الأسماء. لم تعد أعصابي تحتمل ذلك الضغط. سوف أذهب للغرفة المجاورة لي حتى أعرف ما بها.

استجمعتُ شجاعتي، وبخطوات متثاقلة توجّهت ناحية الغرفة

- ننناااددررر.

وقفت أمام باب الغرفة، وأنا أنظر داخلها، وهالني ما رأيته، فخلف الستائر الموجودة في غرفة الضيوف كان هناك تجسيد لشيء ما يُشبه الجسد البشري، يقف وراء تلك الستارة، لم

أُصدّق عينيَّ إلا وأنا أُشاهِدُ ذلك الشيء الشبيه بالجسد يتحرك، ومعه تتحرك الستارة بهدوووء.

- ننناااددددررر.

عُدتُ بسرعةٍ إلى غرفة نومي، وأغلقتُها، وأنا أقوم بقراءة ما أعرفه من الآيات القرآنية.

الصوت يتعالى، وأسمع خطوات تتحرك:

- ننناااددددررر.

مستمرًّا في قراءة القرآن داعيًا الله ان ينتهي كل الذي يحدث، كنتُ ما أزال أسمع مَن ينادي باسمي، هل أنا قد أُصبتُ بالبله. أم أن هناك من يطرق باب غرفتي تك تك تك نناااااددددددرررر؟

الرياح، وأصوات تُنادي باسمي، وطرقات على باب حجرتي، وفجأة إظلام تام، وسكون تام.. فلكي تكتمل الليلة انقطعت الكهرباء مرة أخرى.

ماذا تفعل لو كنتَ مكاني؟

أعتقد أنه عنوان برنامج إذاعي قديم، ولكنني بالفعل لم أكن أدري ماذا أفعل، ظلام تام والرياح على أشُدِّها، وهناك ضوء أحمر خفيف أراه من تحت باب غرفتي..

ضوء أحمر يتحرك جيئةً وذهابًا.

عن أي خوف أتحدث؟ بل قل عن أيِّ رعبٍ أتحدثُ؟ الصوت المطوط يزداد قوةً وحزمًا هذه المرة:

– نننناااااددددرررر.. لقد ناديتنا وقد لبيتُ النداء.

أصوات ارتطام نوافذ كل الغرف تُصفّق إعجابًا بذلك المشهد، فبمنتهى القوة كنتُ أسمع أصوات النوافذ، وهي ترتطم مصدرةً أصواتًا رهيبة، متى ينتهي كل ذلك؟ متى متى متى؟

فجأة عادت الكهرباء مرة أخرى، ولو كان بيدي لقبلت قدمي المسئول عن عودتها في ذلك التوقيتِ بالذات، ومع عودة الإضاءة انتهى كل شيء، لم أعد أسمع أيَّ أصوات في الخارج، وكذلك لم أكن أجرؤ على فتح باب غرفتي. بالتأكيد أنا في كابوس..كابوس مريع، وثقيل بسبب أكلة الفول، وأنا أحلم، وسوف أستيقظ، وأستقبل الحياة بشكل جميل، كنتُ أُمنِّي نفسي بذلك، ولكن للأسف لم أكن أحلم، بل كنتُ أعيش بالفعل أسوأ كوابيسي.

هكذا وأخيرًا تسربت أضواء النهار إلى داخل الغرفة. لتعلن نهاية تلك الليلة الشنيعة.. إنه يوم جديد أخيرًااااا، لقد نمتُ خمس ساعات متواصلة. أشعر بطنين رهيبٍ في رأسي، أعتقد أنني في حاجة لفنجانٍ من القهوة.

نهضتُ من الفِراش مُتثاقلًا:

– ناااددررر؟

إنه صوت أمي، نعم أنه صوت أمي وهي تناديني.

– نعم يا أمي.

– عطشانة يا نادر.

– من عيوني يا حاجة.

بالفعل أحضرتُ كوبًا من الماء، وذهبتُ لأمي في غرفتها.

هناك شيء غير منطقي في تلك الأحداث، ولكنني لا أستطيع مقاومة الاندماج في ذلك الحدث ومواكبته.

كانت والدتي نائمةً، وقد غطَّت وجهها تمامًا ببطانية ثقيلة.

– الماء يا أمي.

بهدووء تُزيح عنها الغطاء لينكشف أجزاء من وجهها.

مستحيل أن تكون هذه أمي، فأمي لم تكن بهذه البشاعة والوجه المُشوَّه المليء بالبُثور الدامية.

– هات يا حبيبي.

الصوت صوت أمي أما الملامح المُفزعة فهي ليست أمي.

- مالك يا واد بتبُصلي كده ليه، وكأنك شوفت عفريت.

- عفريت؟ أنتِ مش أمي.

- أمال انا مين يابن الكلب؟ أم أربعة وأربعين؟

أنا أعلم أن الحوار غير منطقي تمامًا، ولكنني مسلوب الإرادة ويجب عليَّ أن أكمله مُرغمًا.

- طب أسيبك كمّلي نومك.

- أنام؟

قالتها باستغراب.

أعوذ بالله هذا الوجه البشع يحمل صوت أمي، ولكن أمي لم تكن صفيقة بهذا الشكل.

- أنام إزاي بعد المصيبة اللي حطّيت نفسك فيها.

نظرتُ لها باستغراب:

- مصيبة إيه؟

تنظر لي بوجهها البشع.

- إنت رايح في سكة سودة ومعتقدش إنك هتخرج منها بسهولة، اللي فتح الباب يستحمل اللي هيدخل منه. اللي فتح

الباب يستحمل اللي هيدخل منه. اللي فتح الباب يستحمل اللي هيدخل منه.

وبينما هي تكرر تلك الجملة مرارًا وتكرارًا، كان المكان حولي يتغير، ومعالم الغرفة تتغير لتظهر بدلًا منها معالم صخرية لقبو، وأنا أقف أمام ذلك الباب المنحوت بعناية وسط الحائط الصخري. صوت هدير مياه قريب جدًّا.

ما الذي أتى بي إلى هنا؟ بل السؤال الأوقع ماذا أفعل هنا؟

كنتُ أتجوَّل في ذلك القبو ذي الرائحة العطنة، من المؤكد أن هذا المكان لم تطَأْهُ قدم منذ قديم الأزل، مَن الذي أشعلَ تلك النيران في آخر القبو؟

اقتربتُ بحذر، وبدأتُ أسمع أصواتًا قادمة من نهاية القبو.. أصواتًا تتحدث بلغةٍ غريبةٍ، وكأنها مراسم من نوعٍ ما.

كنتُ أُحاول التركيز قدر الإمكان فيما يحدث حولي، مستحيل أن يكون الذي يحدث واقع، كما أنه من المستحيل أن يكون مجرد حُلمٍ.

اقتربتُ أكثر لأجد مجموعة من الأفراد يرتدون ثيابًا لا تتَلاءم مع واقعنا، ثيابًا أقل ما يُقال عنها إنها أثرية.

إنهم يملؤون تلك القاعة، وهناك ما يُشبه المذبح أمامهم، وعلى ذلك المذبح وقف شخص ما تختفي ملامحه،ولا يظهر سوى صوته الجهوري.

أمام الرجل هنالك ذلك الجسد الممدد أمامه في سكونٍ تامٍّ، سكون أقرب لسكون الموتى.

– إننا اليوم نتعلَّم الدرس الذي كنا نبتغيه من البداية، سوف نقوم باستعمال قوى الملوك العظام في إيقاظ ذلك الجسد الفاني الذي استخرجتموه من مقبرته بعد ليلة واحدة من وفاته. فهل أنتم على استعداد؟

قالها الرجل الذي يبدو وكأنه قائدهم الديني لينطلق الجميع في صوت واحدٍ مرددين:

– نعم يا سيدي، كلنا مُستعدون.

ينظر لهم خلف تلك العباءة التي تمنعني من رؤية وجهه.

– لتتقدَّمْ يا عقير، سوف تشارك معي في تشنيع تلك الجثة.

ومن الصفوف تقدَّم شابٌّ مرتجفًا حتى لاصق المذبح.

ينظر له ذلك الكاهن ثم يناوله تلك السكين الطويلة.

- الآن سوف تغرسها في مكانها، ولا تنسوا جميعًا ترديد العزيمة.

بالفعل بدأ جميع الحاضرين يتلون ما يُشبه العزيمة، وهم يُشيرون جميعًا ناحية الجسد المُمدَّد على المذبح، أما عقير الذي كان يرتعد منذ لحظات، فَقَدْ تمالَكَ نفسه أخيرًا، ووضع السكين في مكانها المحدد مقابل قلب ذلك الجسد.

كنتُ أشاهدُ كل ذلك، وأنا غير مُصدِّقٍ لما يحدث. فأمام عينيَّ الذاهلتين - وأكاد أُقسِم لكم - انتفضت الجثة الممددة، كنتُ أفرك عينيَّ غير مصدق لما أراه. ولكن بالفعل الجثة بدأت تنتفض، وذلك المُسمَّى عقير يغرس السكين في مؤخرة عموده الفقري، بعدما قام أحدهم بقلب الجثة على وجهها.

الترانيم مستمرة، وتتعالى باستمرار، الجميع يشيرون ناحية الجثة، الكاهن يُحرِّك يديه حركات هستيرية، وأخيرًا صمت الجميع، ولم يبقَ سوى صوت الكاهن.

- لتكن مشيئتكم، لتكن مشيئتكم، اقارج اقارج اقارج اقارج. يا مَن نتمناه، ونعيش على حِماه أعطنا قوتك في ذلك الجسد، واجعله بيننا حاضرًا، اجعله حاضرًا، اجعله حاضرًا.

ومِن خلفه أخذ الجميع يُردِّد:

- اجعله حاضرًا، اجعله حاضرًا.

كنتُ أرتعد بشدةٍ مما أُشاهدُه، لأول مرة منذ وقت طويل أشعر بخوف حقيقي يجتاحني، فأمام عيني كان الجسد المُلقى على المذبح يتحرَّك في هدوووء مُميت.. أو لنقل هدوووء الأموات. كان يتحرَّك حتى جالس نصف جلسة على ذلك المسبح.

انطلق صوت الكاهن فجأةً:

- خُشوووووووووووع.

وفي لحظة انحنى الجميع أمام ذلك الجسد الذي كان جثة منذ لحظاتٍ، ومع تلك الانحناءة المفاجئة التفتت الجثة الموجودة على المذبح ناحيتي، ومعها أيضًا انتبه لي الكاهن لكي تظهر، ولأول مرة ملامحه المرعبة بعدما رفع رأسه ناحيتي.

- هناك دخيل بيننا، اجلبوه حالًا.

قالها ذلك الكاهن صارخًا، وانطلق كل من في القاعة صوبي، وأنا لم أنتظر كثيرًا، فقدْ أطلقتُ ساقيَّ للريح، وصرخاتُهم من ورائي يتردَّد صداها عاليًا في ذلك الكهف الصخري.

ذلك الكهف لا نهاية له، هكذا كنتُ أشعر، وأنا أركضُ، وكأن شياطين الدنيا ورائي، كنتُ أتخيَّل نفسي مُقيَّدًا على ذلك

المذبح، وهم يغرسون سكاكينهم في جسدي، التفكير في ذلك الأمر أعطاني القدرة على الركض أسرع وأسرع، لم أعد أسمع أصواتهم، ولكنني أكملتُ الركض حتى وصلتُ إلى ذلك الباب الخشبي العتيق لاهثًا مُتعبًا فتحت الباب، ويا ليتني ما فعلت ذلك! فبكل أسفٍ فوجئت بأنني قد وصلتُ إلى آخر مكان كنتُ أتمنَّى أن أصل إليه.. المشاعل في كل مكان، ومجموعة ترتدي ملابس قديمة، وأمامهم كاهن يقف أمام مذبح عتيق،وبجواري جثة كانت ممددة هناك منذ لحظات، وانطلقت الصرخات عالية جدًّا!!!!!!!!!.

– والله مهسيبك يا راجل يا ناقص، والله لافرّج عليك الشارع يا راجل يا عايب.

صرخات أكثر علوًّا تنطلق،ليس هذا صوت الكاهن بالتأكيد، كان صوت جارتنا أم سيد، وهي تصرخ في زوجها.

لو تعلم أم سيد أنها سوف تتداخل مع كابوس منذ ثلاثمائة سنة في عهد الفاطميين ما فكّرت في الزواج بهذا المعتوه من الأساس.

توقّفتُ لحظةً، وأنا ألتفتُ حولي غير مُصدّق أنني قد عدتُ إلى منزلي، ولبرهةٍ من الوقت استغربت للغاية من الكلمة التي قلتُها منذ قليل (كابوس من ثلاثمئة سنة)،وعهد الفاطميين؟ من أين لي

بتلك المعلومات؟ حقًّا من أين لي بتلك المعلومات؟، وتصاعَدَ السؤال عاليًا مُحلّقًا في سماء الغرفة.

ذلك الكابوس المزدوج كان له تأثير كبير في حالتي النفسية في ذلك اليوم. أعتقد أنني لن أذهبَ للعمل.

كنتُ أُدخِّنُ بشراهة كعادتي في تلك الأيام الغريبة، وأمامي كانت الكتب التي أحضرَها عبد الله جاثمة. كنتُ أقاوِمُ، وبعنف رغبتي الجارفة في استكمال الكتب، وانتصرت على رغبتي في النهاية، وقررتُ الخروج من المنزل.

كنتُ مُشوَّش الذهن للغاية، وأشعر أنني قد تركتُ جزءًا مني في ذلك الكهف حقيقة، كنتُ أشعر بأنني قد تركتُ شيئًا مهمًّا مني في ذلك الكهف، كنت أسير بلا هدف محدد حتى وجدت نفسي أمام محل صغير للأدوات الكهربية يخصُّ صديقي مصطفى، وبالفعل دخلت المحل، لأجد حنان المسئولة عنه، وأمامها تجلس سيدة عجوز إلى حدٍّ لا يُصدَّق.

– أهلًا، أهلًا يا نادر، اتفضل، عاش من شافك.

قالتها حنان، وهي تُرحِّب بي بشدة.

– سلم على الست أم بدير دي والدة أماني صاحبتي.

نظرتُ للسيدة التي كانت مُنحنيةً، ورفعتْ رأسها ناحيتي لتلتقي عيناي بعينيها البيضاوين، نعم عينان بيضاوان حرفيًا، عينان التهمتهما المياه البيضاء التهامًا مُخلفةً مزيجًا مخيفًا من الأسود والأبيض.

مددتُ يدي ناحيتها، وما إن لمست يدي يديها المتهالكتين حتى شعرت كأن ألف ألف صاعقة قد ارتطمت مباشرةً بخلايا مخي، انتفضتُ في قوةٍ، وكذلك فعلتُ هي، ومرة أخرى تلاقت أعيننا بتلك النظرة الغريبة.

– ما خطب هذه العجوز؟

نظرتْ لنا حنان في استغرابٍ متسائلةً:

– خير يا جماعة انتو اتقابلتو قبل كده، ولا إيه؟

ولم تتلقَّ إجابةً سواء مني أو من العجوز، فقد كان كلٌّ منا ينظر للآخر في تحدٍّ.. نعم لا تتعجب للكلمة، فقدْ شعرت برغبةٍ عارمة في تحدي تلك السيدة العجوز، وداخل عقلي انسابت كلماتٌ غريبة

– إنت مين؟ وعاوز إيه؟ وإيه اللي جابك هنا؟

مرة أخرى انتزعتنا حنان انتزاعًا من ذلك الحوار العقلي الغريب.

– إيه يا جماعة في إيه انتو هتتضلوا في الحالة دي كتير، ولا إيه؟

متعلثمًا على غير العادة نظرت ناحية حنان:

– مافيش حاجة يا حنان، بس واضح إن الحاجة أم بدير بتشبّه عليا.

أخيرًا تحدّثت العجوز التي كشفت عن صفٍّ من الأسنان الفضية العتيقة:

– أنا أول مرة أشوفه يا حنان.

ونظرت ناحيتها.

– فين القهوة يا بنت الكلب مش قلتلك هقرالك الفنجان، وبالمره هاتي للأستاذ نادر قهوة خلينا نشوف فنجانه.

الحقيقة أنني أكرهُ تمامًا قراءة الفنجان أو معرفة الطالع، ومقتنع تمامًا بعدم جدوى ذلك، ولكن شيئًا ما في داخلي كان يودُّ أن يخوض تلك التجربة مع هذه العجوز.

– ماشي يا حنان يالا هاتيلنا قهوة انتي عارفة أنا قهوتي زيادة.

أخرجت لفافة تبغ، وقبل أن أقوم بإشعالها فوجئت بالسيدة العجوز تمدُّ يدها نحوي:

- متجيب سيجارة.

نظرتُ لها باستغراب شديد..كيف لعجوز طاعنة في السِّنِّ لهذه الدرجة أن تقوم بالتدخين؟!

لم أبالِ كثيرًا، وأعطيتها لفافة تبغٍ، وأشعلتُها لها، وأخذتْ هي أنفاسها بعمُق شديدٍ، أتمَنَّى ألا تُصاب بسكتة قلبية.

تناولنا القهوة، وأخذت أم بدير الفنجان الخاص بي، ووضعته مقلوبًا على طبقة دقيقةً تقريبًا.

ثم أخذتْ تُتمتم بكلماتٍ في خُفوتٍ، وهي تتناول فنجاني هناك شيء غريب يحدث، العجوز تنظر للفنجان في ذهولٍ، ثم تنظر نحوي في كراهيةٍ شديدةٍ. كرّرتْ ذلك المشهد خمس مراتٍ أو ستٍّ، وأخيرًا تحدثت مُتسائلةً:

- إنت جايبها غصب عنها ليه؟

نظرتُ لها في ذهول مُتسائلًا:

- هي مين دي يا حاجة اللي جايبها غصب عنها؟

نظرتْ لي بتلك النظرة المرعبة.

- إنت جايبها غصب عنها، وأنا مش هفضل هنا طول ما هي موجودة.

في ذهول ودهشةٍ حقيقية نظرتُ للعجوز:

– مين دي اللي أنا جايبها غصب عنها يا حاجة؟ أنا لوحدي قدامك أهوه.

– تنظر لي وهي تَهمُّ بالخروج من المحل.

– أنا مش هقعد معاك، ومش هشوف فنجان، ومش عاوزه أشوفك أصلًا طول ما انت جايبها غصب عنها.

لقد بدأ غضب حقيقي يسري في جسدي. وبعصبيةٍ شديدةٍ صرختُ بها:

– هي مين دي يا ست انتِ اللي بتقولي عليها؟ المحل مافيهوش غير أنا وانتِ وحنان، وعمومًا يا ستي لو إنتي شايفة إني جايبها غصب عنها فحقك عليا، يالا يا بنتي اخرجي، وأشرت بيدي وكأنني أُشير لشخص حقيقي أن يخرج.

وهنا ولأول مرةٍ سمعتُ ذلك الصوت يهمس في أذني:

– تحب أقتلهالك؟

صوت هامس غريب سمعته أنا فقط، ولكن الصوت كان يتحدَّث بجديةٍ وصرامةٍ مخيفة.

لم ألتفتْ للصوت،فقط ابتسمتُ ونظرت للعجوز مرةً أخرى.

وهذه المرة كانت العجوز تنظر لي بعينيها مطموستي المعالم نظرةً تُشير إلى أنها قد سمعت ذلك الصوت أيضًا.

وفي ثوانٍ معدودة وجدتُ العجوز تبتسم:

- خلاص كده هشوفلك الفنجان.

تناولت الفنجان مرةً أخرى، وهي تنظر فيه، وتُحرّكه يمينًا، ويسارًا، وتُقلّبه بين أصابعها النحيفة.

- إنت عارف إنت عملت إيه صح؟ متتكلمش، وسيبني أكمل.

نظرت لي حنان، وأشارت بإشارة معناها سيبك منها دي ست مجنونة.

وفجأةً التفتت العجوز ناحيتها:

- أنا مش مجنونة يا بنت الكلب، أنا أعقل منك، ومن اللي خِلفوكي.

حدَّقت حنان في العجوز في ذهولٍ حقيقي.. فكيف استطاعت العجوز أن تعرف ما فعلته حنان على الرغم من أن حنان تجلس خلفها، ولا يمكنها أن تراها من هذه الزاوية؟

قلت لها بنفاد صبرٍ:

- يالاّ يا حاجة كمّلي. عشان أنا اتأخرت.

تنظر العجوز للفنجان نظرةً أخيرة ثم تلتفت لي:

- أنا مش هقدر أقولك غير ربنا معاك، ربنا معاك، إنت مش فاهم إنت عملت إيه؟ إنت فتحت باب من أبواب النار، فتحت باب محدّش قدر يفتحه، وللأسف محدش هيقدر يقفله.

وفي لحظةٍ غادرت العجوز المحل في سرعة، وهي تُردّد:

- ربنا معاك، ربنا معاك.

ونظرت لي نظرةً أخيرةً، وقبل أن أقوم لمساعدتها لتعبُرَ الطريق، انطلق صريرٌ مُخيف لإطارات سيارة تُحاوِل التوقُّف، ولكنها لم تتوقف ليتزين زجاج السيارة بلون أحمر قاتم. لون دماء العجوز أم بدير.

ركضتُ نحوها محاولًا فعل أي شيء وسط صراخ سائق السيارة:

- والله الست دي طلعت فجأة، والله هي اللي غلطانة.

جلستُ بجوار العجوز التي تلطَّخت يدها بالدماء، وحاولت أنِ أقول لها أي شيءٍ، ولكنني بالفعل كنت أعلم أنها تُحتضر،

أمسكت يدي بقوة وسط تجمُّع لأهالي المنطقة الذين تجمَّعوا ليشاهدوا الحادثة كطبع مقدس للمصريين. وحاولت أن أقترب منها، فقد كانت تقول شيئًا ما بصوت خفيضٍ، حاولتُ أن أسمعه جاهدًا، ولكنها كانت تنظر خلفي في رعبٍ كأنها تشاهد شياطين العالم كلها، ويدها الأخرى ترتعش وهي تشير إلى شيء ما في الفراغ، وبفزع حقيقي، كانت تنظر له وكأنه يقترب منها، ونظرات الخوف، والرعب ممزوجة بالدماء على وجهها، ترسم لوحةً مرعبةً وللحظة كانت تحاول أن تتنفس وكأنها تقاوم شيئًا ما يقوم بخنقها ولوهلة، رأيت ما يُشبه أصابع تضغط على رقبة العجوز التي تحشرج صوتها، وهي تُصارع لتحصل على أنفاسها، ولكن انتهى كل شيء، ولفظت أنفاسها الأخيرة وهي تجاهد لمنع ذلك الشيء من الوصول إليها، وحينما ابتعدت عن ذلك التجمهُر حول جثة العجوز.

ومن بعيد رأيتُ ذلك الرجل الذي يرتدي عباءةً غريبةً وقديمة وكأنه قادمٌ من فيلم تاريخي، تلك الملامح التي تذكَّرتها الآن بمنتهى الوضوح. إنها نفس ملامح ذلك الكاهن الذي رأيته في الكابوس. وفي لحظات اختفى وسط الزحام.

حاولتُ أن أركض في الاتجاه الذي لمحته فيه، ولكنه كان قد تبخَّر تمامًا تبخر ليتركني؛ وأنا بالفعل في حالةٍ أقرب ما تكون للجنون، ولكنني لم أكن أعرف أنها فقط البدايةُ، وأنني للتوِّ قد وضعتُ قدمي على أول السلم الذي سوف يُغيِّر حياتي للأبد.

***

في المساء تقابلتُ مع صديقي ربيع على المقهى، كم أنا أعشقُ تلك الأجواء التي أشعر بها أثناء وجودي هنا!

كان ربيع شارد الذهن إلى حدٍّ لا يُصدَّق.

– الشاي يا أساتذة.

قالها (الكُعل) بضم الكاف. هل حكيت لكم حكاية الكُعل؟ ذلك الرجل الذي يعمل في المقهى، وانتشرت حوله شائعات أنه قد وَرِثَ ملايين الجنيهات من والده. ذَكِّروني ألا أحكيها لكم.

فقد اكتشف المسكين بعد فترة أن والده تُوفِّيَ تاركًا له إرثًا عبارة عن أريكةٍ وثلاثة كراسي.

– مالك يا ربيع؟

ينظر لي بنظرةٍ مغموسة بالأسى:

– والله ما عارف أقولك إيه يا نادر؟!

- قول يا ابني هتتكسف مني ولا إيه؟

- أختي يا نادر سابت بيت جوزها، وسابت الولاد، وقاعدة عندنا بقالها شهر.

نظرت له بتعجبٍ:

- وإيه الجديد يعني؟ كل الستات بيسيبوا بيوتهم. أعتقد إن الست اللي متسيبش بيتها انقرضت منذ عهد (الفاطميين).

ما الذي جعلني أذكر تلك الكلمه الآن؟ أحمدُ الله أنه لم يسألني عن عهد الفاطمين. لأنني بالفعل لا أدري ما هو ولماذا ذكرته الآن.

- المشكلة يا نادر إنها خايفة تكون لوحدها بتخاف تدخل المطبخ لوحدها. يا راجل دي بتخاف من الطبلية اللي بناكل عليها. بجد تعبانة وتعبتنا معاها .

كان ربيع يتحدث بمرارة حقيقية.

ناولته لفافة تبغٍ وأشعلتها له.

- شوف يا ربيع أنا أسمع إن في شيخ محترم هنا في مسجد الصفا اسمه الشيخ وافي بيقولوا إنه بيعالج الحاجات دي كويس جدًا، إيه رأيك نسأله ويمكن يساعد في موضوع أختك؟!

تهلّلتْ أساريره للغاية.

- والله يا نادر يا ريت.

ثم تغيّرت ملامحه للأسى مرة أخرى:

- دا جوزها قال لو مرجعتش بيتها هيطلقها.

- خلاص يا معلم يالاّ بينا صلاة العشاء قربت تخلص، ونسأله ونشوف إيه رأيه.

وبالفعل توجّهنا إلى مسجد الصفا للعثور على الشيخ وافي.

انتهت صلاة العشاء، وخرج المصلون وبعد أن سألنا عن الشيخ وافي، وجدناه جالسًا في أحد الأركان. توجَّهنا إليه، وكنتُ أنا البادئ بالحديث.

- السلام عليكم يا شيخ وافي.

ترك المصحف من يديه، ونظر لنا بوجه بشوش تشعُّ منه طيبة حقيقية لم أشاهدها من فترة.

- وعليكم السلام أهلًا وسهلًا بيكم تحت أمركم.

نظر لي ربيع بما معناه أن أبدأ أنا الحديث وقد كان.

سردت أجزاءً،وقام ربيع بسرد بقية مشكلة شقيقته. وصمت الجميع صمتًا تامًّا في انتظار رد الشيخ وافي.

- خلّي صاحبك يروح معاك البيت، وهو هيخلّص الموضوع ده.

نظرتُ إلى الشيخ في ذهولٍ، وكذلك نظر له ربيع، كان الشيخ ينظر لي بنظرة ثقة غريبة للغاية وكأنه يعرفني منذ زمن.

- إزاي يا شيخ هروح أعمل إيه هناك؟

بتلك النظرة الواثقة شدَّ على يدي مبتسمًا.

- إن شاء الله هتروح، وانت اللي هتخلّص الموضوع ده.

قاطعتُه قائلًا:

- يا شيخ أنا مبعرفش في الكلام ده، هروح عند ربيع أعمل إيه بالظبط؟

هذه المرة كان الشيخ وافي حازمًا.

- لا يا ابني انت هتروح وانت هتخلص الموضوع ده بالنسبة ليك دي حاجة سهلة جدًّا ولا انت مش فاهم ولا إيه؟

نظرتُ له في بلاهةٍ:

- طبعًا يا شيخ وافي أنا مش فاهم أي شيء بجد.

هبَّ الشيخ وافي واقفًا:

- روح والحل عندك بأمر الله أستاذنكم أنا لأني عندي مشوار مهم.

هكذا تركنا الشيخ وافي في حالة ذهول فبدلًا من أن يفيدنا في حل المشكلة، أصبحتُ أنا الآن مُطالبًا بفعل ذلك، والأدهى أنني لا أعلم كيف سوف أقوم بذلك؟ كيف؟

كنا نسير أنا وربيع حائرين من كلمات الشيخ وافي.

- هو ليه قالّك كده يا نادر؟

نظرتُ له بتعجُّبٍ:

- وأنا هعرف منين يعني يا ربيع؟!

ما زال ربيع ينظر لي باستغرابٍ، وكأنه يُشاهِدُ كائنًا فضائيًّا نجا من حادث روزويل.

- الراجل بيتكلم عنك بثقة جدًّا، وكأنه يعرفك من زمان.

أجبته بعصبية :

- ياعم أُقسم بالله أنا أول مرة أقابله، ولا عمري اتكلمت معاه أساسًا.

شعرتُ أنني قد أحرجته في الوقت الذي كنت أنا السبب في حضورنا إلى الشيخ وافي من الأساس

- يالا يا ربيع أنا هاجي معاك البيت وسيبها على الله.

وهكذا أخذنا طريقنا إلى مترل ربيع، وعلى كتفيَّ علامات استفهام تثقل كاهلي، وبشدة.

دخلنا إلى مترل ربيع، ونحن حائرين بالفعل، فكيف سيُقدِّمني ربيع إلى والديه بصفة جديدة وهي نادر المعالج؟

حتى لا أُطيل الحوار، ووسط نظرات الاستغراب من والده ووالدته وافقا على مضضٍ أن أجلس مع أخته.

فربما يكون الحل عندي. من يدري؟ حقيقة من يدري؟

في العقد الرابع من العمر، قصيرة الطول، وممتلئة الجسد بشكل لا يصدق. كانت أخت ربيع التي علمت أن اسمها فاتن تتلفت حولها من حين إلى آخر، وأنفاسها غير منتظمة. هنا ولأول مرة في حياتي شعرت بذلك الشعور، شعور غريب يصعب وصفه. هو مزيج بين الراحة النفسية والترقِّي الروحي أو كأنك تُشاهِدُ الموقف من كاميرا سينمائية من الأعلى، دقات قلبي تزداد بدون سببٍ واضح. حاولت أن أتمالك نفسي من رهبة الموقف. ووجَّهتُ حديثي إليها:

- مالك يا ست فاتن؟ إيه اللي حصل؟ سايبه البيت ليه؟ وربيع بيقولي إنك خايفة.. ممكن تحكيلي؟

لم تنظر لي، وقالت بصوت مبحوح:

- أنا مش عارفة أنا سايبة البيت ليه؟ كل اللي أعرفه إني خايفة، خايفة من البيت هناك. (تقصد بيت زوجها).

وبيدٍ مُرتعشة التقطت كوبًا من المياه تناثر نصفه على عباءتها السوداء، مرةً أخرى سألتُها:

- طيب ممكن تفهميني إنتِ ليه خايفه من البيت؟ هل حصل شيء هناك مخوّفك مثلًا؟

شعرت وهلةً أنني قد قمت بالضغط على الزر الصحيح، فبالفعل بدأت فاتن تبكي في حرارة، وكأنني قد قمتُ بفتح بوابة الجحيم في وجهي، فبين دموعها ومخاطها الذي سال في منظر مُقزِّز تناثرت الكلمات منها:

- أيوه يا أستاذ أنا خايفة من البيت من ساعة الست أم حامد ما ماتت.

وتوقَّفت لحظةً لكي تلتقط المناديل من جواري.

من يوم ما ماتت محروقة، وأنا خايفة.. خايفة من كل حاجة.

ابتلعت لُعابها بصوت مسموع، وهي تُكمل:

– ببقى حاسّه إنها بتبُص عليّا.

والتفتت جانبًا، وهي تكمل:

– ببقى حاسّه إنها واقفة قدامي وهي، وهي، وهي بتولع، وجسمها بيسيح قدام عينيا.

وانطلقت صرخه فاتن عالية للغاية.

كنتُ أنظر لها بشفقةٍ حقيقيةٍ من الواضح أن المسكينة قد تعرّضت لضغط نفسي، وعصبي رهيب بعدما شاهدت جارتها، والنار تلتهمها التهامًا.

وجَّهتُ كلامي لربيع:

– قولّي يا ربيع لجأتم لحد من الشيوخ أو مدعي الروحانيات؟

تردَّد لحظةً:

– متتكلم يا ابني.

نظر لي بخجل.

– الحقيقة آه، والدي جابلها شيخ بيقولوا عليه كويس جدًّا، وهو جابلها إزازتين قالها تستحمى بواحدة، وتشرب واحدة، وكتبلها ورقة موجودة تحت المخدة بتاعتها.

الحقيقة إنني أكرهُ الدجل والشعوذة، وكان لي معهم خبرات رهيبة بعد تلك الأحداث منها حكاية دجّال شهير تتابعونه في القنوات الفضائية هذه الأيام ذَكّروني بذلك.

نظرتُ إلى ربيع بنظرة مليئة بالكَراهية.

- إنت بتصدق أمور الشعوذة دي يا ربيع،والله عيب عليك.

- وأنا هعمل إيه بس يا نادر الغرقان بيتعلق بقشاية، وأهو جه ومشي ومحصلش أي حاجه للأسف.

للمرة الثانية منذ أن دخلت المترل أشعرَ بتلك الحالة الغريبة، وكأنني أُشاهد نفسي، والحاضرين معي من كاميرا موضوعة على (كرين).. *من يعمل في مجال التصوير سوف يفهمني بدقةٍ.*

الحقيقة إنني لا أعلم كيف سوف أقوم بعلاج فاتن، وأصعب شيء في هذه الدنيا أن يتمَّ وضعك في موقف المُنقذ، وتخذلهم، وتخذل نفسك معهم.

- ربيع قوم هاتلي المايه اللي الشيخ جابها، وهاتلي الورقة اللي تحت المخدة.

كنتُ أتحدَّث معه بلهجةٍ آمرةٍ حتى إن ربيع نظر لي لوهلة، ثم انطلق، وأحضر الأشياء في سرعةٍ.

- فين الحمّان.

نظرَ لي ربيع:

- هنا.

وأشار إلى ذلك الباب المغلق أمامي.

طلبتُ من ربيع أن يُحضر لي إناءً صغيرًا، أجابني بإيماءةٍ من رأسه، وهو لا يعلم ماذا سوف أفعل به ومن سخرية القدر أنني أيضًا لا أعلم ما الذي سوف أفعله به.

دخلتُ إلى دورة المياه، وأنا في حيرةٍ من أمري. لقد شعرتُ أنني أُنفِّذ شيئًا ما، وكأن هناك من يخبرني ماذا أفعل خطوةً بخطوة.

سكبتُ المياه في الإناء، وغمستُ فيها تلك الورقة الغريبة المكتوبة بالزعفران، وتسمَّرت في مكاني لحظاتٍ منتظرًا الخطوة التالية التي لا أعرفها حتى الآن. ثم حان وقت الخطوة الأخيرة، وأرجوكم لا تسألوني عن فائدة ما فعلتُه لأنني أقسم لكم لا أدري.

لقد قمتُ بالنفخ في المياه الموجود بها تلك الورقة، وكرّرتُ ذلك عشر مرات متتالية، ثم سكبتها في دورة المياه، وصوت السيفون يُنهي الحوار.

خرجتُ من دوره المياه، وأنا لا أعلم ما خطوتي القادمة.

نظرتُ إلى ربيع الذي ينظر لي الآن في بلاهة حقيقية.

– ربيع هاتلي مصحف.

أحضرَ المصحف لي، وجلسَ بجواري.

– من فضلك سيبنا لوحدنا يا ربيع.

نظر لي مسائلًا، ولكنني جاوبته بخشونةٍ:

– سيبنا لوحدنا يا ربيع.

استجاب لي، وتركني مع فاتن في الغرفة.

– انتِ بتعرفي تقري؟

نظرت لي بإحراج:

– للأسف لأ.

– طيب، ولا يهمك أنا هقرا، وانتِ تعيدي ورايا، اتفقنا؟

جاوبتني بإيماءةٍ من رأسها.

لم أكن أدري أي سورةٍ كنتُ أقرؤها. فقط كنتُ أتنقل بين سورة،وأخرى وآخذ من هنا آيةً ومن هنا ايتين وهي تُردّد ورائي ما أقرؤه. هناك قوة ما تُسيطر عليَّ بشكل غريب، وأنا أنفِّذُ ما أشعرُ به بمنتهى الدقة.

ثم انتهيتُ من الكتابة، ونظرت لها نظرةً أخافتني أنا نفسي من نفسي.

– نامي.

بصوت خفيض، وغاضب وقاسٍ قلتُها لها. واجتاحني الذهول بعدما قلتُها، وفوجئتُ بفاتن ترتمي على أرض الغرفة، واهتزّت الأرض من جراء وزنها الثقيل.

هرول إليَّ ربيع، فنظرت له أن يصمُت تمامًا، أغلقنا الغرفة عليها، وخرجنا.

والدة ربيع تهمس في أذن زوجها أن يطرد ذلك الشاب المخبول قبل أن يقتل ابنتهم، ربيع ما زال غير مُصدِّقٍ لما يحدث. أنا نفسي غير مُصدِّقٍ لما يحدث، ولن أُصدِّق لو حكى أحدٌ ليَ أنه نظر لسيدة وقال لها نامي ونامت، إنني هنا أَشبهُ بالفنان عدلي كاسب في (سر طاقية الإخفاء) وهو يصرخ في الموظفين:

(البلالالالام).

ينظر لي ربيع وهو يتحدَّث بصوت خفيض خوفًا من والدته التي على وشك أن تطردني من منزلهم:

- نادر إنت عارف إنت بتعمل إيه؟ قصدي يعني إنت فاهم إيه اللي بيحصل؟ أنا كنت واقف جنب الأوضة، وشايفك وانت بتقولها نامي ونامت، يا نادر، أول مقولتلها نامي نامت، إنت عليك عفريت يا بني ولا إيه بالظبط؟

بالطبع لن أحكي لربيع ما مررتُ به، كل ما يمكنني فعله الآن هو انتظار الخطوة التالية، وهي دخول الغرفة وإيقاظ جبل المقطم النائم على أرض الغرفة.

مرَّت ساعةٌ الآن والجميع ينظر لي وأنا أُشير لهم بالانتظار. صبرًا أيها المخابيل، أُقسِم لكم أنني لا أدري ماذا أفعل.

بعدها بدقائق تلقَّيتُ ذلك التلكس العقلي.. أن أُوقِظَ فاتن. هبَّ الجميع معي في هذه المرة، لن يخاطروا بحياة ابنتهم مع ذلك المخبول، ولهم كل الحق.

دخلنا الغرفة، وفاتن مُستلقية على الأرض.

طلبتُ من ربيع أن يُوقِظها، وهكذا فعل.

وجلست فاتن على تلك الأريكة، وهي تنظر لي:

- قوليلي يا فاتن حاسة بإيه دلوقتي؟

لأول مرة منذ رأيتُها وجدتُ تلك الابتسامة ترتسم على وجهها.

قالت بسعادة حقيقية كمن تخلّص من عبء كبير جاثمٍ على صدره:

- حاسه إني عاوزة أرجع أشوف ولادي وارجع بيت جوزي.

تهلّلت أسارير الجميع، لقد نجح نادر المشعوذ فيما فشل فيه الجميع.

وفي لحظاتٍ ارتدت ملابسها، وأخذها ربيع إلى مترل زوجها.

أما والدها، ووالدها فقد كانا في منتهى السعادة.. والدة ربيع كادت تُقبِّل يدي.

- إنت يا بني فيك شيء لله، والله فيك شيء لله، البت قامت، وراجعه بيت جوزها بسببك.

نظرتُ لها وأنا أعلم أنها كانت سوف تقتلني لو لم تستيقظ فاتن لأي سبب.

قلتُ لها، وأنا أُغادر المترل:

- حاش لله يا حجة، كل شيء بفضل الله، والحمد لله على كل شيء، حمد الله على سلامة فاتن.

سيل من الدعوات منها، ومن والد ربيع، ومن ربيع نفسه حتى وصلتُ إلى باب العمارة.

ما الذي فعلتُه؟ حقًّا ما الذي قمتُ به في الأعلى؟ كيف استطعتُ أن أفعلَ ذلك؟

كنتُ أتمنَّى أن أعلم، ولكن الحقيقة إنني وحتى هذه اللحظة لا أعلم ماذا يحدث لي، وبذلك خطوت خطوةً أخرى هي مجرد خطوة .. إلى أين؟ لا أعلم. حقًّا لا أعلم.

لي رغبةٌ بأن أجلس على المقهى بمفردي، لي رغبةٌ بأن أتحدَّثُ إلى نفسي، وليقل الجالسون على المقهى ما يريدونه عني. فأنا بالفعل أشعر بأنني سوف أفْقِدُ عقلي في أقرب وقتٍ.

طلبتُ فنجانًا من القهوة من (الكُعَل) بضم الكاف.

هل حكيت لكم حكايته؟ أعتقد ذلك.

ارتشفتُ رشفتين من فنجان القهوة،وأنا أحاول أن أستمتع بها بقدر الإمكان. إنها الثانية صباحًا، وعدد الموجودين حوالي عشرة أفراد. كورنيش النيل بجماله ورهبته، وأصوات السيارات المارة تخترق حاجز الصمت بين فينةٍ وأخرى.

كنتُ أحاول التركيز بقدر الإمكان، ووضع تفسير منطقي لما يحدث حولي. تُرى هل توقَّفت أفكاري؟ هناك شيء ما أشعر به يقف خلفي، وينظر لي.. لقد جرَّبتُ هذا الإحساس منذ سويعات قليلة.أنفاسي تتزايد..هل ألتفتُ الآن؟، ولو كان هناك شيء

خلفي بالفعل فلماذا يقف بلا حراكٍ هكذا؟ إنني أرى ظِلّه على الأرض بجواري. ما ذلك الشيء الواقف خلفي؟

كنتُ أسمع صوت أنفاس قادمة من خلفي، شُعيرات يدي، ورقبتي انتصبت واقفةً من شدة الخوف. أُحاول أن أتمالك نفسي بقدر الإمكان. يا ليتني ما جلستُ بعيدًا عن هؤلاء الأشخاص!، وأخيرًا استجمعتُ قواي والتفتُ خلفي بهدوووء، وانطلقت الصرخات.

انتفضتُ على مقعدي، وسكبتُ القهوة، وكوب الماء لأجد أحد المشردين بملابسه المُهلهلة، وشعره الكثيف وهو يضحك، ويضحك بعدما صرخ في وجهي.

وفجأة صمتَ تمامًا، وهو ينظر لي.

كان ينظر لي بنظرات غريبة، وكأنه قد وجد شيئًا ما يبحث عنه منذ زمن.

هرولَ ناحيتي (الكُعل)، وهو يمسكُ بعصا المقشةِ.

أعتقد انكم عرفتم قصته، وأعدكم ألّا أحكي عنه مرةً أخرى.

ملحوظة (الكُعل) بضم الكاف.

كان الكُعل يُهرول، وهو يشتم ذلك المشرد بأقزع الشتائم.

– لا مؤاخذة يا نادر باشا، دا واحد من (المعاريض) وبيهلّوا علينا هنا من وقت للتاني.

استوقفتني تلك الكلمة جدًّاااا (المعاريض).

نظرتُ له متسائلًا:

– يعني إيه معاريض دي يا مَعلَمَة؟

ضحك الكُعل، ومن فمه كانت الرائحة مُقززة لدرجةٍ فاقت رائحة ذلك الشخص المُشرَّد.

– المعاريض دي يا باشا كلمة بالصعيدي معناها المجاذيب. أو الناس اللي بتبقى ماشيه في الشارع وماهاش بيت.

وأكمل سيلَ السباب للرجل الذي سنقول عليه الآن واحدًا من المعاريض.

(كان لي قصة رهيبة معهم، وأقصد هنا المعاريض، أتمنى أن أحكيها لكم في يومٍ ما).

– خلاص يا معلم سيبه، وكفايه بقى الله يكرمك اعملي قهوة، واعمله شاي..

نظر لي الكُعل في هلعٍ:

– أسيبه إيه يا أستاذ؟ خليه يغور في داهية بريحته المعفنة دي.

– معلش خلاص هو هيقعد، وهيشرب الشاي معايا.

نظر لي الكُعل، ونظر للرجل المشرد وهزَّ رأسه، ومِن الوارد أنه قد شملني ببعض السباب وتركنا ورحلَ.

كنتُ أنظرُ لذلك الرجل ذي الوجه مطموس المعالم من كثرة الأوساخ متخيلًا شكله في الماضي، وما الذي أدَّى به إلى تلك الحالة الغريبة؟

مددتُ يدي، وحرَّكتُ أحد المقاعد، وطلبت منه أن يجلس بجواري، ولكنه رفض، وبعد محاولات مُضنيةٍ مني قرَّر الرجل الجلوس بجانبي على الأرض

– إنت اسمك إيه؟

– نظر لي، وكأنه لم يسمع ما قلته.

فكررتُ سؤالي له:

– اسمك إيه؟

– أنا؟

وابتسم ابتسامة كبيرة:

– أنا اسمي زايد.

– إنت منين يا زايد؟

– أنا من (-----) تبع الصعيد.

– وإيه اللي جابك هنا؟!

نظر لي، وكأنني قد أخطأتُ بشدة:

– يعني إنت مش عارف؟

جاوبته باستغراب:

– وأنا هعرف منين يا زايد أنا أول مرة بشوفك.

ينظر لي باستغرابٍ أكثر، وهو يرشف من كوب الشاي الذي أحضره الكُعل، وانصرف بسرعةٍ.

– لا إنت عارف إني جاي هنا بسبب الولية مراتي عشان أبيع الجمال، وأرجع بلدنا تاني.

من الواضح إن زايد مُختل عقليًّا تمامًا.

مرة أخرى، وبصبر أُحسد عليه، وجَّهت له سؤالي:

– طب يا زايد إنت ليه مرجعتش بلدكم؟!

- عشان هي قالتلي أروح أبيع الجمال، وارجع وعرفت إنها اتجوّزت، ومن ساعتها وأنا بدور على الجمال، ومستنيها تكبر عشان أبيعها، وأرجع أقتلها.

ابحثْ دائمًا عن المرأة في كل كوارث المجتمع. حتى المعاريض لم يسلموا منهنَّ. هكذا وضحت القصة الرجل خانته زوجته أو ربما اعتقدوا أنه تُوفِّيَ، وهو عرف أنها تزوجت وأُصيب بتلك الحالة..

- وإنت عايش فين دلوقتي يا زايد.

- أنا عايش فوق.

وأشار بأصابعه ناحية السماء.

الحقُّ يُقال إنني ارتجفتُ بسبب تلك الإشارة، ونظرت إلى حيث يُشير:

- كل يوم بالليل باطلع فوق عندهم بيأكّلوني، وبيشرّبوني، وبعدين بيترّلوني الصبح.

كان يتحدث، وهو ينظر للسماء.

إما أن هذا الرجل يهذي، وإما أنه بالفعل هناك شيء غريب يحدث معه.

هذا ما حاولتُ إقناع نفسي به، فأنا لم أعد أحتمل مِقدار الإرهاق العقلي الذي أُعانيه هذه الأيام.

أشعرُ بالإرهاق يجتاح كل خلية في جسدي وعقلي.. حتى إنني متخوّف من العودة للمترل.

– أنا جعان.

قالها زايد، وهو ينظر لي.

فما كان مني إلا أن طلبت له طبقًا من الفول من عم ناجح وهو وبحقٍّ أفضل من يُقدِّم الفول في منطقتي.

هكذا شرع زايد يأكل بنهمٍ، وطلبت أنا فنجانًا آخر من القهوة.

كنتُ أُتابع زايد، وهو يأكل حينما لفت انتباهي ذلك الرجل المُتهالك الذي يعبر طريق الكورنيش.

من أين أتى ذلك الرجل في هذه الساعة المتأخرة؟

السيارات تأتي بسرعة رهيبة ولن يلتفت له أحد.

صرخت به

– حاسب يا حاج استني، وانا هجيلك أعدّيك.

إلا أن الرجل سبقني.

يادي الليلة السودة..إنه رجل آخر من المُشرَّدين.

عبر الرجل الشارع، وظهرتْ ملامحُه،إنه رجل طاعن في العمر يُشبه زايد في كمٍّ الأوساخ المُغطَّى بها تمامًا.

الرجل المُشرَّد ينظر لي برهبةٍ، وأنا أنظر له، ولا أعلم ما هو المفروض أن أقوم به؟!

فكل ما فعله هو أن توقَّف أمامي، وتسمَّر مكانه تمامًا.

- تاكل يا حاج؟

ولم أُكمل كلامي حتى انقضَّ الرجل على الطعام بجوار زايد يتقاسمان لُقيمات الفول معًا.

طلبت لهما المزيد منه، وهما لم يتوانيا عن تناوله، الحق يقال إنهما في حالة يُرثى لها، وأنا أحاول أن أفعل ما يُمليه عليَّ ضميري.

انتهى الجميع من تناول وجبتهم، وجلسوا ينظرون لي.

أشعر بالخجل بسبب ذلك رواد المقهى ينظرون لي من بعيد غير مصدقين ما أفعلُه. نادر بيتكلم مع المعاريض، كنتُ أضحك

من مجرد انتشار تلك الفكرة في المنطقة التي أسكن بها. سوف تكون كارثة.

دقائق ثقيلة مرت، وزايد بجواري ومعه ذلك الرجل الذي لم ينطق سوى كلمتين حتى الآن:

– الحمد لله.

يكررهما كل دقيقة.

من على ذلك الرصيف أجد سيدة قادمة، وتُمسك في يديها عدد من الأكياس البلاستيكية.

بشعر منتصب وملامح غريبة مرعبة تجلس بجواري. أنا في أشد حالات الذهول في دقائق سوف يتم طردي من المقهى، أنا أعلم ذلك.

إنها السابعة صباحًا،والعدد قد وصل إلى عشرة من المعاريض. ما بين ثلاث نساء وشابين وخمسة من الكهول، وجميعهم يجلس على الرصيف بجواري، وينظرون لي، وكأنهم في انتظار أمر محدد مني. لقد بدأ الخوف يتملّكني، وبشدة من هذا العدد الكبير من المعاريض. منهم من يُتمتم بكلمات غريبة، ومنهم من ينظر إلى الأرض، ويتأمل الحشرات، ومنهم من يتحدث، وهو يشير إلى السماء. لقد أصبحت في مستشفى أمراض عقلية حقيقي.

ثم توالت الأحداث بشكل غير مسبوق، رجل يحاول عبور الطريق.. رجل عادي يبدو من ملابسه أنه موظف. إنني اعرف هذا الرجل وبيني، وبينه عداوة كبيرة، ومشادة حدثت بسبب اختلاف في الآراء من قبل.

يحاول أشرف عبور الطريق، وفي لحظة وكأن المعاريض قد تلقّوا إشارة غيبية معينة وقفوا جميعًا، وارتسمت على ملامحهم نظرات الشَّرِّ والكراهية، وانطلقوا ناحية أشرف، ركضوا نحوه وهم يصرخون،وبدءوا في العراك معه، منهم من يقذفه بالحجارة، ومنهم من اشتبك معه بالأيدي، ومنهم من مزَّق ملابسه. كنتُ أضحك بشدةٍ مما أُشاهدُه.. لقد أصبح الرجل مرتديًا ملابسه الداخلية فقط وهو واقف على كورنيش النيل، والسيارات المارة توقَّفت وتوقَّف المارة وكلهم غير مصدقين لما يحدث. أما أشرف فكان يصرخ كالمجنون، وهو يُوجِّه السّباب والشتائم لهؤلاء المشردين، وفي النهاية نجح رواد المقهى في إبعادهم عن أشرف الذي كان يشاهدني، وأنا أضحك وفي منتهى السعادة، أعتقد أنه استحقَّ ذلك العقاب على أفعاله الشريرة التي طالما عُرفت عنه.

انتهت المعركة، وعاد المعاريض ليقفوا بجانبي لحظة. هي مجرد لحظة، وكأن هناك مَن وجَّه إليهم أمرًا ما، ففي لحظات انطلق

كل منهم إلى حال سبيله. كلٌّ منهم أخذ اتجاهًا وسار فيه، وآخرهم الرجل العجوز، فَقَدْ نظر لي ومدَّ يده ليصافحني وهو يقول:

– الحمد لله.

هكذا رحلوا جميعًا بدون سابق إنذار رحلوا وتركوني، وأنا أكاد أُجن مما يحدث، ما الذي يحدث لي؟ وظلَّ السؤال بدون إجابة.

عدتُ إلى المترل، وأنا في حالة غريبة غير مصدق لما يحدث حولي، هناك شيء غريب يحدث، وأنا أثق أنها مجرد البداية.. مجرد بداية.

***

من الواضح أن أختي قد حضرت إلى المترل وأنا في الخارج.

ملابسي الداخلية، وبعض البيجامات غُسلت وتم طويها بشكل مُنسَّق غير مُعتاد عليه من أختي.

هي تسكن على بُعد حوالي ساعة من مترلنا.

كيف أتت، وانصرفت بهذه السرعة؟

كنتُ أشعر بانقباضة حقيقية منذ دخلتُ إلى المترل. شعور خانق، وكأن هناك شيئًا يجثُم على صدري.

حاولتُ أن أتناسى ذلك،وأنا أقوم بتغيير ملابسي.

لقد تغيرت، أختي بالفعل، أصبحت نشيطةً فجأة. لقد قامت بغسل وترتيب ملابسي.

فتحتُ الثلاجة، وأنا أبحث عن أي شيء يؤكل؟ كيف أتت أختي إلى المترل وفعلت كل ذلك، ولم تقم بطهي أي طعام لي على غير عادها؟

شطيرة الجبن الأبيض، والنعاس يغالبني. مرحلة اللا نوم لا يقظة. ثم لا شيء لم أستطع النوم.

قمتُ بفتح الستائر في غرفة النوم حتى أتنفس بعض الهواء النقي. حينما أصابتني حالةٌ من الذهول.

لقد ألجمتني الصدمة.

كيف حل الظلام بهذه السرعة

ظلام دامس بكر لم تطأه أقدام النور منذ قرون.

لحظات شعرت، وكأن هذا الظلام يلتهم كل الضوء حتى الموجود في غرفتي.

كنتُ أسمع صوت حفيف يتزايد، وكأن هناك شيئًا يقترب. أصوات الحفيف تتزايد لتكسر حاجز الصمت المريب المحيطة بي،

وأمام النافذة، وبلقطة تُشبه أفلام السنيما ظهر ذلك الوجه، ظهر أمام النافذة تمامًا، وهو يُحدِّق بي من الفراغ، لو كنا بهذه الأيام لقلت لكم وكان ذلك الوجه هو جزء من فيلم ثلاثي الأبعاد.

كان ينظر لي بنظرات مفزعة، وأنا ثابت تمامًا في مكاني بلا حراك.

الوجه يزداد ضخامةً أكثر وأكثر..

لقد اتسع ليحتل النافذة كلها.

بل لقد دخل إلى الغرفة، وهو يزداد اتساعًا.

كنتُ أتراجع بخطوات مهزوزة،وأنا أُشاهد ذلك الوجه أمامي لقد أوشكَ على ملء الغرفة بأكملها.

كنتُ مُلتصقًا بالحائط في رعبٍ، وذهول وهلع. قل ما شئتَ، وأخيرًا تحدَّث الوجه:

– سيناه خوان حيمك سيناه خوان حيمك ماناز.

نظرت في بلاهةٍ حقيقيةٍ، وأنا لم أفهم أيَّ حرفٍ مما قاله.

كان يُكرّرها في ثباتٍ مرعب، والصوت يزداد أكثر وأكثر، وكأن عدم ردي عليه يزيده حنقًا:

– سيناه خوان حيمك ماناز.

كنتُ أحاول أن أُبرِّر له أنني لم أفهم أي كلمة مما قاله.

حينما اتسعت عيناه وقال كلمة واحدة:

- اسوتاااااااه.

ومعها ابتسم ذلك الوجه، وانطلقت ضحكته عاليةً للغاية.

الجدران تتهاوى، أثاث المترل يتحطم، والوجه يضحك أكثر وأكثر وأكثر، ثم...ثم لا شيء.إنه حلم آخر. استمرارا للكوابيس التي تطاردني.

المشكلة الحقيقة أن تلك الكوابيس أشعر بها واقعية بشكل مبالغ فيه، وكأنها رسائل معينة، كنتُ أتحدَّث مع نفسي بصوتٍ مسموعٍ حينما انتبهتُ لذلك حمدتُ الله أنني في المترل بمفردي، ولم أقم بذلك أمام أي شخص، وإلا اعتقدوا أنني قد جننتُ تمامًا.

مكالمة مع أختي التي حضرت ولم تجهز لي أي طعام:

- إيه يا بنتي بقي ينفع كده تيجي البيت، ومتعملّيش لقمة لاخترکي.

- آجي البيت؟

قالتها باستغراب.

- يا نادر.. عادل جوزي تعبان،وأنا مش هقدر أجيلك الأيام دي أساسًا، وكنت هتصل عشان أقولك كده.

هلع حقيقي سألتها:

- جيهان بلاش هزار.. إنت بجد مجيتيش البيت النهارده؟

ردّت عليَّ بعصبية:

- والله العظيم ما جيت أنا بقولك جوزي تعبان ومش هقدر أسيبه وأجيلك.. نادر؟ نادر؟ إنت معايا؟

- خلاص يا جيهان هسيبك دلوقتي، ونحكي وقت تاني.

- يا بني قول في إيه؟ في حاجة حصلت؟

لوهلةٍ كنت سوف أحكي لها، ولكنني تراجعتُ في آخر لحظة.

- لا يا جيهان مافيش حاجة يالا هبقي أجيلك قريب.. سلام.

- سلام.

أغلقتُ الهاتف معها، وأنا بالفعل أوشك على الانهيار، معنى كلامها أنها لم تحضر من الأساس.

معنى كلامها أن هناك شخصًا ما أو شيئًا ما قد قام بغسل ملابسي.

عند هذه الكلمة شعرت بتلك القُشعريرة تتوغل في جسدي بعنف.

كنتُ أجلس في تلك الغرفة التي يوجد بها الهاتف الأرضي. حينما شعرت بذلك الظلِّ الذي تحرك في جانب الغرفة، ربما هي حالة من التوتر. كنت أحاول بث الطمأنينة في نفسي.

إنني بالفعل في موقف لا أُحسد عليه، وفي حاجةٍ ماسَّةٍ إلى شخص أحكي إليه.. شخص يصدقني.

لقد مَرَّ ذلك الظل من أمامي مرة أخرى، ولكن هذه المرة لقد رأيته يدخل وراء الستائر.

القُشعريرة تزداد.

أصوات الأمطار أيضًا تعطي الجو المزيد، والمزيد من الرعب، وأنا لستُ في حاجةٍ لذلك.

أشعر بدوار غريبٍ، قدماي لا أشعر بهما، حالة من التيبس تنتابني..لقد بدأت أعرف لماذا في كل أفلام الرعب يتسمَّر الضحايا أمام الوحوش. الآن فقط أنا أعرف السبب.

لقد ظلمت ستيفين سبيلبيرج، ومحمد الطحاوي، وعبد المجيد الطرشجي.

كنتُ أُتمتم بذلك بصوت مسموع.

إنها مرحلة مُتقدمة من الهذيان.. مرحبًا بك في قسم الصحة النفسية بمستشفى العباسية.. للمتابعة باللغة العربية اضغط رقم واحد، إذا كنت تعاني حالة مسٍّ أو لبسٍ أو تريد التواصل مع كائنات العوالم الأخرى برجاء الانتظار، وإذا كنتَ في حالة استعجال فيمكنك إنهاء حياتك بإغلاق الخط.

– سيناه ثموان حيمك ماناز.

كنتُ أنظر إلى يدي الخاوية التي أشعر أنني أمسك بها سماعة الهاتف.

– سيناه ثموان - يمك ماناز.

وبدون تردد خرجتْ مني تلك الكلمات:

– اسيم تانا لوام سيوناف.

أصوات ضحكات شيطانية.

وأمام عيني الذاهلتين كانت الستائر تهتزُّ.. تهتزُّ. ومِن خلف الستائر بدا ذلك الجسد يتجسد، وهو يقترب مني في خطوات بطيئة.

جسد شبِهُ بشري، وربما هو جسد أنثوي، وبلهجة أخرى غريبة خرج الصوت الأنثوي من ذلك الجسد، ولكن العجيب في الأمر أنني قد فهمتُ معني كلماته.

– اسون قاني عكي خيماق.

إنها تسألني:

– لماذا جلبتني إلى هذا العالم؟

كانت فرحتي في تلك اللحظة الهستيرية تُشبه فرحة الفنان القدير يحيى الفخراني في فيلم الكيف حينما كان يرقص، ويقول اتعلمت اللغة. اتعلمت اللغة.

كيف استطعت فهم لغتها؟، وكأنما قد قرأتْ أفكاري أو ربما أنا مَن تحدَّث بصوت مسموع:

– أنت من أحضرتني إلى عالمكم.. أنت من جلبتني هنا.

نظرتُ لها في ذهول:

– أنا؟

ومِن خلف الستار جاءني صوتها مرة أخرى، ولكن بعصبية أكثر:

- نعم أنت جلبتني هنا، وجلبت عليَّ وعلى نفسك بلاء جسيمًا.

- كنتُ أنظر إلى الستارة غير مُصدّق أنني أتحدث مع كائن ما، وأقف خلفها. كائن أُنثوي، وذلك واضح من صوتِه، وذلك الكائن يتحدث إليَّ الآن. أعتقد أنه حلم آخر. كنتُ أُتمتم بذلك في صوتٍ خفيضٍ حينما جاءني ردُّها الحاسم:

- كلا يا آدمي، أنت لا تهذي في هذه المرة، أنا أمامك بالفعل.

نظرتُ لها في بلاهةٍ، ولماذا أشعر بتلك الحالة، وكأنني مخمور أو كأنني في حالة حُلمٍ؟

قالت لي:

- أنا السبب في ذلك، إن كسري لحاجز عالمي، وعالمك، وحضوري هنا هو ما يسبب لك تلك الحالة.

نظرتُ لها متسائلًا:

- عالمك؟

- نعم عالمي أيها الآدمي، عالمي الذي أصبح في خطورةٍ بسبب ما فعلته.

بتعجُّبٍ سألتُها:

– عالَمك في خطورةٍ بسببي أنا؟

– نعم بسببك أنت، وبسبب ما قرأته.

وأكملتْ في سرعةٍ:

– سوف تفهم كل شيء في وقته، ولكن يجب عليك أن تنفذ ما سوف أخبرك به.

– كلي آذان مصغية يا فضائية.

وبحدةٍ أجابت:

– أنا لستُ فضائيةً يا آدمي، أنا أرضيةٌ مثلي مثلك، ولكننا أهل الجوف.

تمتمتُ مرددًا:

– أهل الجوف؟

أجابتني بسرعة:

– نعم وسوف تفهم كل شيءٍ في وقته، ولكن يجب أن تنفذ ما أقوله لك حرفيًّا. يجب أن تُغادِرَ هذه المدينة فورًا، غادرْ إلى أي مدينة أخرى وحينما تصل سوف أحضُر إليك مرة أخرى.

الستائر تهتزُّ.

– إن وقتي هنا قاربَ على النفاد، وما عاد لديَّ ما يكفي من الطاقة. غادر هذه المدينة اليوم، والآن يا آدمي فتلك الطريقة الوحيدة التي ربما تفلح لنجاتك.

نظرتُ لها في توجُّس وسألتُها:

– هل أنا في مأزق كبير إلى هذه الدرجة؟

اهتزَّت الستائر أكثر، وأكثر، والصوتُ الأُنثوي يبتعد:

– أنت في موقفٍ مُخيف يا آدمي. استمع لكلماتي، وابتعد الآن، وبسرعة، بسرعةٍ يا آدمي. حياتُك، وحياتنا على المحكِّ.

كان ذلك آخر ما سمعته منها، وبعدها ساد الصمت المكان، وتردّدتْ في أذني كلماتُها، تردّدتْ، وأنا أستقلُّ الحافلة المتوجهة إلى بلدتي، لقد نفَّذت ما طلبته مني السيدة أو لنقُل ما كانت وراء الستار، لقد كانت حاسمةً في كلماتها، وقد نفَّذت ما طلبته مني.. لقد غادرت القاهرة، وأنا أتمنَّى أن تهدأ الأمور، وكالعادة لقد كنتُ متوهمًا.

***

الموجه الثانية



المنوفية محافظتي... بلدتي التي لا أعرف أحدًا فيها... إنها الحقيقة، فأنا قليل السفر إلى المنوفية، والسبب...؟ لا يوجد سبب فقط أنا مُقلٌّ جدًّا في ذهابي إلى هناك، ولكن أعتقد أنه لا ملاذ لي سوى هناك...

الميكروباص ينهب الطريق في سرعة، الأفراد يتمايلون يمينًا ويسارًا.. إنني أكره تلك الميكروباصات التي تجد نفسك جالسًا وأمام مقعد مواجه لك.. تشعر، وكأنك في تحقيق ولستَ في سيارة.

أمامي رجل طاعن في السن، وبجواره زوجته التي تنظر لي في كراهيةٍ، ومعهما طفلان يسيل المخاط من أنفيهما.

أغمضتُ عينيَّ مُحاوِلًا الهروب من واقعي المُقزِّز وأنا أُحاول ألَّا أُشاهِدَ الطفل...

أشعر، وكأن عقلي ينفصل تدريجيًا عن جسدي.. بهدوء تام أشعر، وكأنني أتحرَّر من قيود جسدي وأتحرَّر، وكأنني أُشاهد المنظر من كاميرا عالية كنتُ أشاهد الرُّكاب في الحافلة... بل الشيء المرعب أنني أشاهد نفسي أيضًا نائمًا في السيارة.. إنني أُشاهد كل شيء بوضوح، وكأنني بالفعل قد تركتُ جسدي الماديَّ تمامًا...

أليس هذا هو الإسقاط النجمي الذي يتحدثون عنه؟

كنتُ أطوف في مدار الحافلة بعقلي وجسدي ممدَّد داخلها..

كنتُ أنظر للعجوز الجالس مع زوجته.. حينما بدأت تنساب إلى عقلي تلك الرسائل....

اسمه محمد عبد النبي الطحان، زوجته اسمها عائشة، لديهم مشكلة في الميراث مع ابن أخيه.. فابن أخيه يريد أن يشتري منه المنزل الذي ورثوه بسعر بخس، والسبب أن هناك آثارًا فرعونية في أرضه.. يجب أن تخبره أن يقوم هو بنفسه بالحفر فالدفائن الموجودة لن تخرج إلا له هو فقط، وسوف تساعده أنت على ذلك...

انتهت الرسالة

وفي لحظةٍ انتفضت في عنف حتى إن الرجل الجالس بجواري شهق من الخوف بسببي..

- جرا ايه يا أستاذ؟ فزعت اللي خلفوني!

كنتُ أشعرُ بخجل شديد من فعلتي.

تأسفت له عمًّا بدر مني بشدة.

أنا في ورطةٍ حقيقيةٍ الآن.. فالرسالة التي جاءتني أخبرتني كل تفاصيل حياة هذا الرجل الجالس أمامي، وأنا لا أعرف هل ما شعرت به من معلومات حقيقي أم لا؟

هل كنتُ أهذي؟ هل بالفعل تحرَّر عقلي عن جسدي؟ هل أنا أُعاني حالة انفصام شخصية؟!

التجربه هي خير دليل، سوف أُفاتح الرجل مباشرةً، وليحدث ما يحدث.

نظرتُ له في توتُّرٍ وأنا أبدأ حديثي:

- إزيك يا حج محمد؟!

انتبهَ لي الكهلُ باستغرابٍ..

- أهلًا بيك يا بيه.. إنت تعرفني؟

تلعثمتُ، وأنا أجيبه:

– طبعًا مش إنت الحاج محمد الطحان.

نظر لي باستغرابٍ أكثر.

– إنت عرفت اسمي منين يا بني؟!

جاوبته بتردُّدٍ:

– أشهر من النار على العلم أي حج .

وفي داخلي تمتمتُ:

يا للمصيبة...!

نظر لي الرجل بشكٍّ أكثر، وشاركتُه زوجته التي تكرهني منذ ركبنا الحافلة.

– بس يا بني أنا الناس كلها تعرفني با سم الحاج محمد الوزاني، وعمر ما حد ناداني بالاسم ده خالص!

وبنظرة متفحصةٍ مرتابةٍ نظر لي متسائلًا:

– مين حضرتك؟

أنا اسمي نادر يا حج، من بلد اسمها (دجامة)، من عائلة الدكارنة.

نظر لي الرجل وهو متسع العينين:

– يا نهار أبيض.. نادر ابن الحاج زهران الدكروري.. يا أهلًا وسهلًا أنا عارفك يا أستاذ نادر.. دا انت ابن الغالي الحاج زهران الله يرحمه.

(أشعر أنني شاهدت تلك اللقطة في فيلم عربي من قبل ... أعتقد هو سلام يا صاحبي.... ربما بعد قليل سوف يخبرني أن لديه كمية من البطيخ عاينهم على جنب) ... وأن والدي الحاج رضوان كان خيره على البلد...

أكمل الرجل في ترحابٍ حقيقي:

– والدك دا من خيرة الناس اللي كانوا عندنا في البلد قبل ما يسيبها وينزل مصر.. الله يرحمه خيره على البلد كلها.

وانفجرت ضاحكًا بشكل جعل كل الركاب ينظرون لي في استغراب.. فالرجل كان بالفعل يحكي ما كنتُ أُفكِّر فيه إلا أنه لم يذكر البطيخ....

كان الحاج محمد ينظر لي متسائلًا عن سبب انفجاري ضاحكًا، وزوجته تحدِّق لي بنفس النظرات الكريهة.

– أنا بضحك من المفاجأة يا حاج.. سبحان الله الدنيا صغيرة.. أهلًا بيك يا حاج محمد.

– أهلًا بيك يا أستاذ نادر، والله كنا في مصر عشان الحاجة أم شافعي مراتي تعبانة شوية، وكنا بتزوّرها الحسين، والسيدة زينب.

نظرتُ للسيدة الحانقة:

– ألف سلامة يا حاجة.

بالطبع لم تجِبني، ولكن ازدادت نظراتُها حدةً.

لم أُعِرها انتباهي، وأكملت مع الحاج محمد.. حتى وصلنا إلى دلجامة تلك البلدة المُهمشة الصغيرة، وأقسم الحاج محمد أن أتناول عنده العشاء اليوم، وسوف يوجد شافعي ابنه أيضًا، وقص عليَّ بعض الذكريات التي دارت بيني وبين شافعي.. التي بالطبع لم أتذكر منها أي شيء.

– دا شافعي هيفرح قوي قوي لما يعرف إنك جيت.

أجبته، وأنا أحاول معرفة طريقي:

– إن شاء الله يا حاج هكون عندكم بالليل...

وسلّم عليَّ في حرارة، وسلّمت على زوجته، وحلف عليَّ ابنُه أن يقبلني.. ابنه الذي يلعق مخاطَه.

- لااااااااااااااااااااااااااااااااااا ...

وكأن الشيطان الصغير تلذَّذ بذلك، وهو يطبع قبلاته الرطبة الممزوجة بالمخاط على وجنتي.

أقسم بالله أنني سوف أنهارُ باكيًا من شد القرف.. لولا أنه طفل لصفعته على وجهه، ولكنني تمالكتُ أعصابي، ومسحت وجنتي بمنديل ورقي وأنا ألعنُ البلد وألعنَ الأطفال جميعهم...

وانصرفوا أخيرًا......

كنتُ أسيرُ في الشوارع الملتوية التي تخترق الأراضي الزراعية.. لم أحضر إلى هنا منذ زمن.. ذلك الشعور الذي ينتابُنا جميعًا حينما نترك مكانًا فترةً طويلةً ونعود إليه.. شعور أن المنازل قد انكمشت، والشوارع قد ضاقت أكثر وأكثر.

بالطبع هي لم تتغير، ولكننا من قفزَ بنا العمر.

إنني أمام حقيقة كارثية.. أنا لم أعد أتذكَّر مكان منزل جدي هنا في البلد.. لقد مررتُ في هذا الطريق للمرة الرابعة، ولم أجد شيئًا.. هل تمَّ هدمه؟ أم أنني تائه؟

حسنًا هناك بقالة صغيرة سوف أسأل فيها عن منزل العائلة:

- سلام عليكم..

ألقيتُ السلام على ذلك الرجل الأربعيني الذي يحمل شنبًا رفيعًا أعلى شفتيه، ويلتهم شطيرة هائلة من الفول...

– أؤمر يا باشا.. اتفضل معانا لقمة.. إنت بتسأل عن حاجة؟.. شكللك أول مرة تيجي البلد بتسأل عن شيء معين؟

كان يقوم بالحديث بدون توقُّف، ولم أفعل شيئًا سوى النظر إليه.

– أؤمر يا بيه.

وأخذ يضحك كاشفًا عن أسنانٍ فضيةٍ.

– يا سيدي أنا بسأل عن بيت الحاج زهران الدكِروري؟!

نظر لي الرجل باستغراب:

– الحاج زهران الدكوري.. الله يرحمه، ويحسن إليه.. ليه يا أستاذ في حاجة ولا إيه؟

بنفاد صبرٍ أجبته:

– يا سيدي أنا نادر ابن الحاج زهران، وجاي اقعد يومين هنا، ومش فاكر البيت.

نظر لي الرجل بذهول، وهو يزيح الحاجز الخشبي الذي يضع عليه البضائع:

– نادر زهراااااااااان...

يا لها من مصيبة! من الواضح أن هناك ثأرًا وأعتقد أنني مطلوب فيه..الرجل يُحدِّق فيَّ بذهول حقيقي، ويترك الشطيرة جانبًا.. سوف يُخرج البندقية، ويُنهي الحوار..أنا أعلم ذلك.

تقدَّم مني، واحتضنني بعنفٍ، وانفجر ضاحكًا بهيستريا:

– يا نهاااااااااار أبيااااااااااض ناااااااااااادرررررررر..
مش ممكن! إنت مش فاكرني؟ أنا أسامة... أسامة العباسي ...
أسامة العبااااااااااسي يا نادر يا نهاااااااااااار! معقولة نسيت أيام الكورة، وصيد السمك، والغيط؟!!

لم أتذكَّر شيئًا بالفعل، ولكنني يجب أن أخرج من تلك الورطة فالرجل يعرفني جيدًا بحقٍّ:

– أااااااااااه أهلًاااااااا إزيك يا حاج أسامة؟!

نظر لي، وهو يُخرج لي كرسيًّا خشبيًّا عتيقًا:

- اتفضل يا ناااادر، فينك وفين أراضيك وأيامك؟!.. بقى يا راجل متسألش على قرايبك كل الفترة دي؟!.

قرايبي....؟ من الواضح أن الرجل تربطني بهَ صلةُ قرابةٍ... تبًّا للزهايمر!

- دي عزيزة بنت عمك كانت تعبانة، والحمد لله ربنا كرمها بعدما دوخنا بيها عند الدكاترة.

من المستحيل أن أسأله عن صلة القرابة بيننا بعد كل تلك الاحتفالية الشعواء.. أنا مُنهك من الطريق، وهو يلتهم أذني التهامًا.

- أنا هقفل الدكان، وتيجي عندي البيت.

حاول ذلك بشدة، ولكنني رفضتُ الفكرة، وطلبتُ منه أن يأخذني لمترلنا لأنني بالفعل نسيت طريقه.

- أقفي يا بت يا هدى مكاني هنا، هوصل عمك نادر، وآجي على طول.

وطوال الطريق كان يلومني على، البعد وعدم السؤال، وكيف سوف أستقرُّ في المترل الخاص بنا، وهو مُغلق منذ عشر سنوات.

أخيرًا وصلنا إلى ذلك المنزل العتيق.. سيلٌ من الذكريات كان ينهمر أمام عينيَّ.

بالفعل قضيتُ هنا أوقاتًا جميلة، وأنا طفل.

انتزعني أشرف الذي أعتقدُ الآن أنه زوج بنت عمي، وهو يطلب مفتاح المنزل.

أعطيتُه إياه، وهو يحاول فتح ذلك القفل الصَّدئ مرةً ومرةً ومرةً حتى استجاب أخيرًا، وانفتح الباب الخشبي المهول مُصدِرًا صوتًا خُرافيًّا.

- يا ساتر دا البيت محتاج نضافة ياما.

قالها هشام، وهو يسعل بعنف من كمية الأتربة المُحيطة بنا: -

- هتقعد هنا إزاي بس يا نادر؟ والله حرام عليك.

لم ألتفتْ له، ولكني طلبتُ منه أن يحضر لي مياهًا للشرب، وسجائر، وأنا سوف أقوم بالباقي.

هكذا، وبعد مُحاولاتٍ مُضنية منه أن أقوم بتغير رأيي، انصرف على أن نلتقي في المساء، وبعد دقائق حضرت لي ابنتُه حاملة لي ما طلبته.. فشكرتُها، وانصرفت، وأغلقت الباب العملاق، وأشعلت لفافة تبغٍ، وأنا أفكر.. لماذا أتيتُ إلى هنا؟ لماذا

أتيتُ إلى مترل آخر أكون به بمفردي؟.. لماذا لم أطلب من أيِّ أحدٍ من أصدقائي أن يأتي معي؟

لا أعلم.. ربما سوف أفعل ذلك، وأتصل بأصدقائي أو ربما لن أفعل.. المهم هو أن أجد فراغًا وسط تلك الأتربة لأرتاح قليلًا، وحينما أستيقظُ سوف أقوم بترتيب كل شيء، وغلبني النعاس.

نومٌ طويل هادئ تمامًا بلا أحلام تقريبًا، لم يخرجني منه سوى لدغات الناموس البري.. نعم هذه أفضل تسمية، له فهو ناموس مختلف عمَّا عهدناه بالقاهرة..أو كما يطلق عليها سكان الأرياف مختلف عن الموجود بمصر.

استيقظتُ، وأنا أسعلُ من كمِّ الأتربة التي استنشقتُها أثناء نومي، ونظرتُ في ساعتي.. إنها الثامنة مساء.

و... و...كنت أسمع صوتًا قادمًا من الغرفة المجاورة.. صوتًا هامسًا يُشبهُ الفحيح.

المترل الريفي المُكوَّن من خمس غرف عملاقة منها غرفة مُهمَلة، ومغلقة بها الكراكيب.. هذا ما أتذكَّره.

كنتُ أحاول الإنصات جيدًا.. نعم هناك صوت قادم من تلك الغرفة المهملة التي يفصلني عنها باب خشبي يَقسِمُ المترل من

الداخل أربع غرف، وباب خشبي يفصلني عن غرفة المهملات، والمطبخ، ودورة المياه....

الأصوات تتعالى..

الخوف يتملَّكني ..

الأصوات تتعالى أكثر، وأكثر، وكأن هناك شخصين يدور بينهما عِراك.

لا تفتح الباب.. هي رسالة أسمعها بداخلي.

افتح الباب، ومتخافش.. رسالة أخرى.

المشكلة الحقيقية أن أضواء المكان ضعيفة للغاية، ولا يوجد سوى لمبة واحدة تعمل، وهي التي تُضيء جزءًا من المكان، والباقي يسوده ظلامٌ مرعب بحقٍّ.

سوف أتغلَّب على خوفي.. هكذا وبعد صراع نفسي قررتُ أن أفتح الباب الفاصل الذي يطلقون عليه باب الوسط.

لم يستجب لي، حاولتُ أن أفتحه مرةً أخرى بعنفٍ، ولكن كان هناك مَن يقوم بدفعه من الجانب الآخر..الفكرة في حد ذاتِها بثت في نفسي رعبًا حقيقيًّا.

مَن الشخص الموجود، ويحاول منعي من فتح الباب...؟

حاولتُ بعنف أكثر وأكثر، وعدتُ للخلف حتى أنقضّ على الباب، وأفتحه وارتطمتُ به في عنفٍ وفُتح الباب بصوتٍ مُفزع.

كنتُ أترقّب أن أشاهد ذلك الشيء الذي يدفع الباب من الخلف، ولكنني لم أجد سوى فرعٍ متهالك من نخلةٍ قديمة ملقًّى بإهمال خلف الباب.

ابتسمتُ في سخرية من تصرفي، وخيالي العجيب الذي هيَّأ لي أن هناك شخصًا يدفع الباب من الجهة الأخرى.

الأجواء كارثية هنا..كميات هائلة من المُهمَلات، وحيوانات نافقة.. بط، وأرانب.. من الواضح أن السقف المصنوع من السلك قد انهار من جراء قذف الجيران لفضلاتهم.

كنتُ أتحاشى أكوام القاذورات المتراكمة بفعل السنين، وأنا أحاول الوصول إلى الغرفة التي أعتقد أن الصوت قادم منها.

الشيء الغريب أن هناك إضاءة حمراءَ خافتة.. تظهر من أسفل الباب الخشبي.. كل أضواء المنزل لا تعمل إلا واحدة بالخارج، وهذه الحجرة فقط..حاولتُ أن أدفعَ باب الغرفة في هدوء، ولكن من الواضح أن الباب مغلقٌ بمفتاح.. حاولتُ معه أكثر من

مرةٍ ولكنه لم يستجِب.. كل ما حدث أن الأضواء القادمة من أسفل الباب قد انطفأت.. ذلك كل شيء..انطفأت، ومعها صدر صوتٌ غريب أكاد أُقسِم أنه صادرٌ من الغرفة المغلقة ذاتها.. صوتٌ أشبه بنداء، ليست المشكلة في النداء بل المشكلة أن الصوت نفسه لم يكن صوتًا بشريًا.. إطلاقًا.

المترل بحاجة إلى قنبلةٍ فوتونية حتى نطلق عليه مترل، لن أستطيع ترتيب أي شيء اليوم.. سوف أقوم بتأجيل كل شيء للغد.

انتزعتني طرقاتٌ هائلةٌ على باب المترل:

– يا أستاذ نااااادر.. اصحى يا سيدي، إنت لسه نايم ولا إيه؟

صوت هشام الجهوري القادر على إيقاظ أموات قبيلة التيرانا في حربهم مع القرويين.

فتحتُ له الباب، نظر لي، والابتسامة تملأ وجهه:

– إنت لسه نايم ولا إيه؟

وقبل أن أنبسَّ ببنت شفةٍ فوجئتُ بمن يخرج من خلفه، ويحتضنني بعنف..

– نااااددر الغالي اللي ناسينا.

الذهول يعتريني، وأنا أنظرُ لذلك الشنب الذي ينبت له وجه، هذا هو الوصف الأدق.. رجل له شارب ضخمٍ للغاية، ينظر لي بلهفةٍ...

– إيه ياعم نادر أنا أشرف.. أشرف أبو المحاسن.. يا ليلة سوده يا ولاد.. إنت مش فاكرني؟؟

وانطلقتْ ضحكاتُ شخصٍ ثالث بجواره:

– هيفتكرنا إزاي يا سيدي خلاص أشرف،وأسامة اتنسوا مع الأيام.

– يا الله! لقد تذكرهما الآن، إنهما أشرف، وأسامة الشقيقان التوأمان هما من أقاربي، أعتقد أنهما ولدا خالة زوج بنت عم والدتي أو شيء من هذا القبيل، ولكنني أتذكرهما.

يا الله! لقد غيرتهما، وغيرتنا الأيام كثيرًا.. أهم شيء أن الاختلاف بين الشقيقين لن يكون مشكلة، فأشرف صاحب الشارب العملاق، وأسامة لا يمتلك واحدًا لحُسن الحظ.

أخذنا هشام وانطلقنا لمنزله،فالغداء جاهز منذ وقت طويل.

البط، والدجاج أمامنا،والجميع يلتهم بقسوة وسط ضحكات عن ذكريات الطفولة البائسة، وكرة القدم، والصيد.

انتهت الوليمة، وشكرتهم جميعًا، وهممتُ بالانصراف.. إلا أن طلبي كان مستحيلًا.. سوف نذهب لتناول الشاي في الغيط.. هكذا ذهبنا إلى هناك.

الحقيقة أن أجواء الحقول بالفعل هي خيالٌ خصبٌ جدًّا لكلِّ الروايات التي تحدثت عن النداهة، *والرصد، والرصد لي معه قصة ربما إذا نجحت تلك الرواية، ووافقت دار النشر على عدم إعدامي رميًا بالرصاص، فربما يوافقون على نشرها يومًا ما.*

هواء عليل ونسمات غير ملوثة، نظر لي أشرف:

– إيه يا عم نادر بتفكر في إيه؟

تنهدتُ بعمقٍ:

– أبدًا والله يا أشرف بس وحشني الهواء النقي، والعيشة الهادية هنا.

تدخَّل أسامة في الحديث:

– إنت اللي نسيتنا خالص يا باشا، وكنا عارفين إنك شغال في الصحافة، وفرحانين بيك والله.

– الشاي يا رجالة..

قالها هشام وهو يُوزِّع علينا أكواب الشاي الصغيرة.

نظر لي هشام نظرةً مُتفحصةً كنظرة المُخبرين، وهو يُشعل لفافة تبغٍ:

– مالك يا نادر حاسس إنك متغير.. أينعم انا مشوفتكش من زمان بس إنت شكلك تعبان أو مرهق.. مالك؟

ابتسمتُ نصف ابتسامة.

– أبدًا والله بس إرهاق وتعب من الشغل، وقلت آجي أريح أعصابي هنا يومين، وأهي فرصة أشوفكم.

كان أشرف، وأسامة مُنهمكين في حديث خاصٍّ وقد بدأت أصواهما تتعالى:

– إيه يا رجالة بتتخانقوا ليه؟

قالها هشام موجهًا حديثه لأشرف وأسامة.

أشاح أسامة بوجهه وهو يقول:

– ما أنت عارف يا هشام نفس موضوع المشكلة.. موضوع البيت المقفول اللي أشرف عاوز يشتريه كله من الحاج محمد

الوزاني، والحاج محمد رافض، وبيغلّي عليه في السعر.. كل ده عشان البيت تحته أثارات.

التفتُّ ناحيتهم، وأنا أُكرِّر الاسم:

- الحاج محمد الوزاني!

نظر لي هشام:

- أيوه يا نادر الحاج محمد أبو شافعي.. لإنت لسه فاكره معقولة؟

قلتُ لهم باستغراب:

- أنا كنت راكب معاه الميكروباص النهارده، وأنا جاي من القاهرة.. إيه مشكلتكم معاه؟

نظر لي أسامة باستغراب:

- إنت نسيت يا نادر إن الحاج محمد الوزاني يبقى عمي من الأم، أخو أبويا بس من الأم.. المشكلة إنه مش عاوز يبيع البيت اللي ورثناه، ومصمم على كده.

كنتُ أسمع حديثهم حينما تذكرت أن المفروض أن أتعشّى أو أتغدى عند الحاج محمد اليوم،ولكنني نسيتُ ذلك، حقًّا نسيتُ..

لقد كانت الرسالة التي وصلتني واضحة.. يجب أنا أُساعِدَ الحاج محمد، وأنا قد تأخرتُ عن تنفيذ ذلك.

– روحت فين يا عم نادر؟

نظرت لهم بهدوء:

– لا أبدًا أنا معاكم أهو.

وعقَّبْتُ:

– طيب ما تحاولوا تتراضوا مع بعض وتشوفوا موضوع الآثار دي، وأهو الخير يعم على الجميع أحسن من الخناق.

قال هشام:

– الله ينور عليك هو ده الكلام المحترم.

تحدَّث أسامة، وهو يرسم بعصاه على أرض الحقل:

– يا ريت يا نادر يوافق أو حتى حد يقنعه.

ونظر إليَّ أشرف مُتسائلًا:

– إيه رأيك يا أشرف في كلام نادر أنا شايفة كويس، وحل هيرضي كل الأطراف..

هبَّ أشرف منتفضًا من مكانه في ثورة عارمة:

- أنا عارف إن الوزاني مش هيوافق، ومش هيجيبها لبر.. بس أنا موافق اننا نشتغل في البيت واللي هنلاقيه هيكون قسمته بالحق بينا.

وأكمل..

- بس مين اللي هيقنعه؟

نظرُت لهم جميعًا مبتسمًا:

- دي بتاعتي أنا متشيلوش همها.

وبعد نصف ساعة تفرَّقنا، وذهب كل منا إلى مترله على وعد بلقاء غدًا.

طلبتُ من هشام أن يوصّلني إلى مترل الحاج محمد الوزاني.. فنظر لي باستغراب شديد...

- يا نادر الساعة عشرة بليل تلاقيه نايم.

- يا سيدي متقلقش إن شاء الله هيكون صاحي.

ضحك هشام ضحكةً مُجلجلةً وهو يقول:

- شكل الدنيا مخبطة معاك، وموضوع الآثار ده إنت محتاجة جدًّاااا، ودخل في نوبة ضحك.

شردتُ بذهني مفكرًا في كلمات أشرف.

الحقيقة أنني لا أعلم ما الذي أفعله وأي قوة تلك التي تدفعني دفعًا ناحية أشياء لا قِبَلَ لي بها، ولكنني أفعل ذلك وأُنفِّذ ما يُطلب مني حتى أُشاهد النتيجة في النهاية.

- هو ده بيت الحاج محمد يا نادر.

قالها، وهو يُشير إلى ذلك المنزل الصغير الملون بلون أصفر غريب.

- يالا أسيبك أنا بقى.. هتعرف تروّح البيت ولا هتّوه؟
وانطلق يضحك وهو يخبط كتفي بيديه:

- إوعى تتوه بقى.

شخصية مُبالغ فيها بالفعل.

انصرف هشام، وطرقت الباب عدة طرقات ولم يفتح أحد، وما إن هممتُ بالرحيل حتى أصدر الباب صريرًا مزعجًا، وبرزَ وجهُ الحج محمد من خلفه..

لماذا تصدر جميع الأبواب ذلك الصرير المزعج؟

بعد الترحيب، والشاي الأسود الثقيل، وبدون إطالة نجحت في إقناعه بالموافقة على البحث عن الآثار المدفونة أسفل المترل الذي عليه الخلاف، ووسط تعهُّدات مني بألَّا تحدث أي مشكلات من أي نوع، وإنني شاهد علي كل شيء، وأن تتم قسمة أي آثار مناصفة بينهم على أن تكون لنا أنا، وهشام نسبة صغيرة.

انتهيتُ من حواري معه، وقبل أن أهمَّ بالمغادرة دخلتْ علينا زوجتُه أم شافعي، وهي تنظر لي بتلك النظرات الكريهةز

بتردُّد نظر لها زوجها:

- مالك يا حاجة؟

لم تلتفت لكلماته، ولكنها استمرت بالتحديق في وجهي بنظراتٍ يملؤها الغضب:

- إنتي إيه اللي جايبِك عندنا؟

قالتها بحدةٍ.

الحقيقة أنني تعلثمتُ من كلماتها المفاجئة، وشعرتُ بإحراج شديد حتى إن زوجها نظر لي، وكأنَّه يتأسف ووجَّه كلامه لها:

- هي مين دي اللي بتكلميها يا أم شافعي؟

تجاهلته تمامًا، وهي تكمل:

- إنتِ عاوزه إيه مننا؟.. أنا شامه ريحتك المعفنة من ساعة مركبنا، وركب معانا الزفت اللي جايبك معاه.

نظرتُ لها بذهول.. مِن المؤكَّد أنني أنا المقصود بالزفت.

كنتُ أشعرُ بحرج شديد جدًّا من الموقف الذي أنا فيه.. حتى الحاج محمد كان مذهولًا مما تقوله زوجته.

بعصبيةٍ نظر لها:

- إيه اللي بتقوليه ده؟.. عيب كده الأستاذ نادر ضيف عندنا، وانتِ كده بتهينيه.

نظرتْ له، وعيناها تتسعان أكثر وأكثر:

- ولا ضيف ولا زفت.

وصرخت فيه بعنف:

- اسكت انت خالص.

بذهول أكثر وأكثر قال لها:

- إنتِ أكيد اتجننتي.. عيب كده يا وليه.. عيب احترمي نفسك.

وكأن الحاج محمد قد ضغط زرا خفيًّا بكلماته.. فقد انتفضت زوجته، وبدأ وجهها يتلوَّن بلون أحمر، وكأنها على وشك الانفجار، وهي تنظر لي وله وتُحرِّك رأسها يمينًا ويسارًا باتجاهنا، وهي تقول كلماتٍ غريبة:

– إنتو السبب، وهي عارفة، إنتو السبب، ومش هتروحوا البيت، ومش هتحفروا هناك يا ولاد ال.... يا...... يا.....

كانت توجّه لي ولزوجها شتائم فظيعة، والرجل ينظر لها وهو يشعر بالأسى، والإحراج مما تفعله زوجته:

– أنا آسف يا بني هي بقالها فترة مجاهاش الحالة دي بس معرفش ليه رجعتلها تاني.. أنا قلت بعد مازورناها أولياء الله خلاص حالها هيتصلح..

كانت تنتفض في عنفٍ، وهي تُحدِّق في شيء ما خلفي، وتصرخ في عنف.

لقد أصبحت الحالة أصعب بكثير، ففي لحظات معدودة كانت السيدة ممددة على الأرض وجسدها مُتشنِّج تمامًا، وتصرخ بمنتهى العنف، وهي تقول باستمرار:

– خرّجوها.. مش عاوزاها قدامي.. خرّجوها..

أما الحاج محمد فجلس بجوارها، وهو يقرأ القرآن، ويحاول أن يهدّئيء من روع السيدة التي ما زالت تصرخُ، وتتلوَّى في عنف شديد، وبسبب حالتها الغريبة أخذت تقضم شفتها السُّفلى التي أخذت تترف بغزارة، وزوجها يبكي بجوارها، وهي تبتسم، وتنظر لي في جنونٍ حقيقي،وأخذت تضحك بهيستريا، وتضحك، وفي لحظةٍ وكزت الحاج محمد في صدره بقوة، وهبَّت واقفةً أمامي، والدماء تُغطي فمها تمامًا، وتنساب على رقبتها، وهي ما زالت تضغط أكثر وأكثر على فمها بأسنانها، وتكاد تلتهم شفتيها التهامًا.

حاول الحاج محمد أن يقوم من مكانه، ولكن من الواضح أن الضربة أثرَّت فيه تمامًا.

أمَّا السيدة فكانت تُحرِّك رأسها يمينًا، ويسارًا في جنون واضح، وتقترب مني.

كانت تقترب بمنظرها البشع، والدماء التي تُغطي فمها تمامًا، وهي مستمرة في التهام المتبقي من شفتيها الداميتين..ماذا سوف تفعل بي تلك المرأة المخبول؟

هنا سمعت ذلك الصوت الأُنثوي ينساب عبر عقلي بكلماتٍ مُوجزةٍ تمامًا:

- سوف أجعلُها تندم على ما قالته، شاهد بنفسك.

وأمام عيني الذاهلتين انتفضت السيدة العجوز، وكأنها ارتطمت بحاجز خرساني قوي، وبمنتهى العنف، وكأن شيئًا ما أمسك السيدة من رقبتها، وأكاد أجزم أنها ارتفعت عن الأرض بضعة سنتيمترات، وهي تحاول التقاط أنفاسها وسط صرخات الحاج محمد، ووسط صوت الحشرجة الرهيبة الصادرة من السيدة التي تُحاول التقاط أنفاسها في صعوبة، ومع جحوظ عينيها انطلقت الصرخات مني أنا بعنف:

- كلا كلا توقفي لا تؤذيها، أرجوكِ، أرجوكِ.

واستمرَّ الحال كما هو عليه لبضع ثوانٍ، ثم فجأة ارتمت السيدة أم شافعي على الأرض، وكأن تلك القوة الخفية قد استجابت لصراخي، وتركتْهَا.

أما الحاج محمد فكان يستعيذ بالله من الشيطان، وهو يحاول النهوض بشتى الطُّرق.

بعد أن هدأ الحال نسبيًّا أستأذنتُ من الحاج محمد، وغادرتُ، وهو يعتذر لي عمَّا حدث، والحقيقة أنني كنتُ أعتذر له أيضًا فقد كنتُ أشعرُ أنني قد تسبَّبتُ في كل ما حدث بشكل أو بآخر.

لقد تأكدتُ أن ما يحدث لي قد بدأ يأخذ شكلًا آخر، ومَنحًى آخر، وشئتُ أم أبيتُ فأنا في قلب العاصفة، وسوف أعرف مثلكم إلى أي مكان سوف تقذف بي العاصفة، والأهم هل سأكون على قيد الحياة وقتها،وبقيَ التساؤل حائرًا.. حتى غفوتُ من فرط الإرهاق ولم يوقظني منه إلا صوتُ ميكروفون المسجد.

(تُوفِّيت إلى رحمة الله الحاجه أم شافعي، والدفن بعد أذان العصر.. لا إله إلا الله، يَفْنى العبد ويبقى الله).

لقد رحلتْ أمُّ شافعي رحلت لتزيد الأمر تعقيدًا للغاية.

كنت لأستمع غير مُصدّق لصوت إمام المسجد، وهو يتعالى بتنويه عن وفاة أم شافعي.

كيف رحلت بهذه السهولة؟ بعدما عاشت كل هذا الوقت.. تأتيها الوفاة بعدما التقيت بها، هل كل ذلك من قبيل المصادفة؟؟

أشعرُ بسخونة في رأسي.. ملايين الأفكار تتزاحم، ملايين الاصوات الغريبه تُنادي.

عُدتُ مرةً أخرى لفراشي، لم أعد أقوى على الوقوف، أحاول أن أُغمض عيني، وأُهدّيء من روعي.

نداءات غريبه تتهاوى على رأسي.. نداءات بأصوات غريبة، ولغات أغرب.

ما الذي يحدث لي؟، لماذا أصبح تواجدي دائمًا يحمل في طياته كارثة محقّقة.. ماذا فعلت بنفسي حتى أصل إلى تلك المرحلة الجنونية؟؟الحقيقة إنني، ومنذ فترة طويلة لم أشعر بالأسى على نفسي مثلما أشعر الآن.

تلك القطرات الدافئة التي تنساب علي وجنتي أيقظتني مما أنا فيه.

"سوف تفهم كل شيء في وقته".

انطلق ذلك الصوت من خلف الستائر بجوار الدولاب العتيق.. إنه نفس الصوت، وبنفس اللغه التي أصبحتُ أُجيدها، وأتحدثُ بها بطلاقة.

انتفضتُ واقفًا، وأنا أحاول التحديق في ذلك الجانب المظلم:

– ما الذي يحدث لي أرجوكي أخبريني؟

قلتها، وأنا بالفعل أكاد أتوسل إليها.

– أنا بحاجةٍ إلى معلومة.. أي معلومة لتفسر ما أنا فيه أو بمعنى أفضل.. ما اصبحت عليه.

بنفس الصوت الرخيم أكملت:

– أنت من وضعت نفسك في ذلك المأزق،وأنت من ستُخرِج نفسك، وتُخرجنا معك منه.

بغضبٍ ممزوج بالدهشه صرخت بها:

– ماذا فعلت أيتها الجنيّة القادمة من العوالم الأخرى؟؟ ماذا فعلت لي، ولكم؟

وساد صمت ثقيل بعد كلماتي.

صرخت مرة أخرى بها:

– اخبريني ماذا فعلت لي، ولكم.. إنني اعيش في قصة غريبة، وكأنني أشاهد أحداث مسلسل خزعبلي،ولكن الكارثة أنني بطل هذا المسلسل، أتمنى أن أستيقظ، وأكتشف أنني كنت أحلم، وأعود لحياتي الطبيعيه مرةً أخرى، كم أتمنى ذلك.

وأكملتُ صارخًا:

– إنني أتحدثُ مع كائن غريب، لا أعلم ماهيته، يتحدث لي من وراء الستائر، ويعطيني أوامر يجب عليَّ تنفيذها، وإلا سوف يحدث غزو للأرض ونهاية للعالم، وكأنني أصبحتُ فجأة مسئولًا عن مصير البشرية بعدما كان أكبر مسئولياتي الحفاظ على خمسة جوارب ملقاة بإهمال في أدراجي.. أي عبث هذا الذي أعيش فيه الآن؟!

وكان الرد حاسمًا..

تلك الزمجرة التي تُشبه زئير ألف ألف أسد جائع انطلقت بمنتهى العنف داخل الغرفة، وتبعها صوت الكيان الغريب:

– أنتَ من فعلت بنا كل ذلك، لقد كنا نعيش حياتنا بسلام.. حتى جئتَ أنت بذلك الكتاب الأعمى، وفتحت علينا وعلى نفسك أبواب جهنم.

ترددت وهلةً ثم علّقت باستغراب:

– الكتاب الأعمى.

ردت عليَّ مرة أخرى بانفعال:

– نعم أول ما فعلته بسذاجة هو أنكَ قرأتَ من الكتاب الأعمى الذي كان عليه شكل مجسد ليد من ثلاث أصابع.. هل تذكّرته؟

(فيما بعد اكتشفتُ أنه يُسمى الكتاب الأعمى لأن من كتبه يُقال إنه كان ضريرًا، وإن الشياطين وأمراء الجن هم من جعلوه يكتبه).

أجبتُها فورًا:

– نعم أتذكره تمامًا، ولكنه كتاب مثل باقي الكتب أليس كذلك؟

وبنفي قاطع أجابت:

– كلَّا يا آدمي.. ليس مثل باقي الكتب.

بتوسُّل سألتها:

- أرجوكِ أوضحي لي ما يحدث، أتوسَّل إليكِ أن تعطيني أي جواب مقنع عن أسئلتي.

منتظرًا أجابتُها..

ما زلتُ منتظرًا إجابتها...

وأخيرًا تحدّثت:

- ما يجب أن تفعله هو أن تنفذ ما أخبرك به حرفيًّا، ولا تتسائل الآن،وسوف يتضح كل شيء في وقته، وكن على يقين أنني أساعدك أو بمعنى آخر أنقذك، وأنقذ جماعتي مما قد يحدث.

سألتها بسرعة:

- وما الذي سوف يحدث لو لم أنفذ؟

- الفناء.. الفناء يا آدمي.. قُم بفتح الباب لأسامة قريبك.

صرخت بها:

- انتظري أرجوكِ.. بماذا أناديكِ؟ كيف أتحدَّث معكِ؟ أين أنتِ؟

وعلى باب المترل كانت الطرقات، وبديهيًّا أنها كانت طرقات أسامة مثلما أخبرني ذلك الكائن، وبمجرد أن رآني نظر لي في تردّد، ودخل إلى الغرفة مباشرةً.

- شفت يا نادر.. أم شافعي ماتت.

نظرت له بحدة:

- نعم لقد سمعت المنادي في المسجد.

نظر لي مرة أخرى بخبث:

- ويا ترى أنت عرفت ماتت إزاي؟!.

كان يحاول استدراجي:

- فأجبته في إيه يا أسامة بالظبط؟

حرَّك رأسه بطريقة غريبة، وهو يتحدث:

- إنت اللي في إيه يا نادر؟..البلد كلها بتتكلم إنك كنت عندهم إمبارح، وإنهم سمعوها بتصرخ، وانت هناك، وبعدين إنت مشيت من عندهم جالها نوبة، وبعتولها دكتور.

نظرت له لا مباليًّا.. أن يكمل.

- وخدها الدكتور المستشفى، والمشكلة إن حالتها كانت صعبة جدًّا.. بيقولوا إنها كانت مقطعة لسانها، وخدودها بسنانها، وإنها فضلت تنادي باسمك في المستشفى، وتشتم عليك لحد ما ماتت.

- هو في إيه يا نادر؟ فهّمني.. إيه اللي حصل هناك في بيت أبو شافعي؟

هل أخبره بما حدث؟.. هل أخبره أن السيدة العجوز تحوّلت أمامي إلى كائن غير بشري وتحدثت بصوت غريب؟

انترعني من أفكاري انتزاعًا وهو يصيح:

– فهّمني يا نادر إيه اللي حصل هناك؟!.. الناس بتقول إنك انت السبب في اللي حصل لأم شافعي!.

بذهول نظرت له :

– أنا السبب؟

أجابني بحماسة:

– أيوه يا نادر بيقولو انك السبب، وإنك.

ولم يُكمل حديثه.

– كمّل يا أسامة، وبيقولو إيه كمان؟!.

وبتردد، وخوف أجابني:

– بيقولو إنك مخاوي،وإن أبو شافعي جابلك من مصر عشان تعالج مراته، وإنك السبب في موتها.

– هما بيقولو كده في البلد..إنت عارف إن البلد صغيرة، وأي خبر بينتشر فيها في دقايق.

سألته:

- وهل صدّقت ذلك يا أسامة؟

أجابني إجابة شعرت أنها مصطنعة:

- لا طبًعا أنا قلتلهم إن أم شافعي كانت تعبانة من فترة، وإنك كنت هناك في زيارة عادية.

نهضت من الأريكة، وأمسكته من كتفه:

- وانت مقتنع بإيه يا أسامة؟!.

بلع لعابه بصوت مسموع، وأكمل:

- الحقيقة يا نادر، ومتزعلش مني.. المصادفة غريبة جدًا.. إزاي كل ده يحصل أول ما انت تروح لبيت أبو شافعي.. أنا مش فاهم في إيه؟ احكيلي طيب إيه اللي حصل هناك؟..احكيلي دا انا قريبك، وستر، وغطا عليك.

شردت لوهلة، وقرّرت أن أحكي له كل شيء.. حينما قاطعتنا صوت طرقات على باب المنزل.. طرقات قوية، ومتتابعة.

نهض أسامة بسرعة وهو يردّد:

- خير يا رب.. ربنا يستر.

- الأستاذ نادر موجود .....

ومن خلف أسامة شاهدت أحد رجال الشرطة:

- أنا النقيب سعد متولي، وكنت عاوز أتكلّم معاك شوية.

والحقيقة أنني بالفعل ما كنت في حالة تسمح بتدخل الشرطة فيما يحدث..

إن القادم أسود أنا أشعر بذلك..

جدًّا!!!!!!!!

***

لا داعي للخوض في تفاصيل التحقيق.. فقط أنواع مقززة من الشاي الأسود.. فقط نظرات كطلقات المدافع من أهل القرية الذين مررت بهم ذهابًا، وإيابًا.. الكثير من التبغ، الكثير من النظرات المريبة للكائن القادم من القاهرة، الكثير من وإزاي ده حصل.. طب، واسمعني بعد ما كنت انت هناك.. طب رأيك انت إيه.. ثم.. إن شاء الله تستمر معنا هنا في القرية لعدة أيام.

نظرت له بمعنى:

هل أنا محل اتهام؟!

إجابة من عينيه تؤكد ذلك، ورد من فمه يؤكد أنه فقط لدواعي التحقيق، وربما يحتاجون شهادتي.. ذلك كل شيء..

إنها حقًّا ليالي سوداء.. هكذا أصبح شعوري..

***

إنه المساء.. يجب أن أذهب إلى العزاء اليوم، وأيًّا كانت العقبات فيجب أن أتواجد، ولكنني أيضًا يجب أن أتناول طعامًا.. أي طعام.. بعض قطع من البسكوت الفلاحي، ومعه كوب من الشاي تكفيني تمامًا.

ذهبتُ إلى هشام، ومنه تجمعنا جميعًا، ومعنا أشرف وأسامة متجهين إلى العزاء.. أشعر بملايين الأسئلة تصوب نحوي من ثلاثتهم، وحتى أُريّحهم جميعًا توقفت لحظة.

– عشان ترتاحو.. بعد العزا أنا هحكيلكم كل اللي حصل مع ابو شافعي.

تهلّلت أساريرهم، وحاولوا نفي أنهم يترقّبون سؤالي.. مشكلة أغلب البشر أن أعينهم تفضحهم، والمشكلة الأكبر أن ردود أفعالهم تفضحهم أكثر وأكثر.

العزاء، الشاي، التبغ، صوت الشيخ بصداه يجلجل في خلايا مخي إنها من عاداتهم.. صوان كبير ومهيب، وشاي وقهوة وسجائر بين الحين والآخر، وبعد نصف ساعة كان مخي يئنُّ من الصوت الرهيب، نظرت للجميع أنني سوف أغادر، وهكذا وقفنا لنأخذ دورنا مع المغادرين..

– البقاء لله

– شكر الله سعيك

– البقاء لله

– شكر الله سعيك

للمرة الخمسين الآن حتى وصلت إلى شافعي.. نظرات ثاقبة كارهة، وكأنه يقول لي لقد جئت، ومعك الخراب يا بومة.. رَبنا ياخدك .....

بومة وربنا ياخدك؟! شكرًا يا شافعي.

الشيء الغريب أنني بالفعل، وكأنني أسمع أفكاره، أبو شافعي ينظر لي بإحراج.

– شد حيلك يا حاج

– الشدة على الله يا بني.

وهكذا انصرف ثلاثتنا.. سوف نذهب إلى الغيط، وهو أفضل مكان بعيدًا عن جميع الأعين.

الشاي على الراكية، حكيت لهم كل شيء.. هكذا شعرت ببعض من الراحة، ووسط علامات الدهشة من نوعية.. يا ربنا.. يا ليلة سودا.. يا عيني يا أم شافعي..

أنهيت حواري.. نظر لي أسامة بخبث:

- إنت مخاوي يا نادر ولاّ إيه؟

- مخاوي؟!

كرّرها، وأنا أضحك:

- لا يا سيدي أنا، ولا مخاوي ولا أي شيء.. أنا حكيتلكم اللي حصل مع أم شافعي بالظبط وبس.

هشام يلتقط طرف الحديث وهو يُشعل لفافة تبغ:

- معنى كده إن أم شافعي كانت شاكّة إن انت معاك حاجة، وشافتها، ولاّ أم شافعي كانت بتخرّف؟!.

بنفاد صبر جاوبتهم:

- أنا حكيتلكم، وخلاص.. المهم هنعمل إيه في موضوع الآثار؟

بغضب جاوبني أشرف:

- آثار إيه بس والراجل لسه مراته ميته؟.. لازم نستني الأربعين على الأقل.

حدّقت فيهم بفزع:

- أربعين؟.. أنا مستحيل أفضل هنا المدة دي؟!.

- يا سيدي طيب بس اصبر يومين، ونشوف الحاج أبو شافعي هيعمل إيه؟.. الاستعجال وحش.

أما أنا فقد أصررتُ على موقفي أن يكتمل شيء بسرعة، وأن أقابل خلال يومين سوف الحاج أبي شافعي، ونبدأ التنفيذ.

افترقنا، وعُدتُ إلى المترل.. النوم يلعب لعبته القذرة، ويأبى أن يأتي.

شاشة التلفاز العتيقة، ومذيعة تحكي عن أشياء لا أفهمها.

وانتفضت في عنف.. أكاد أقسم أن أحد ما قد لطمني على كتفي..

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

لا بد أنني غفوت، وأنني كنت أحلم.

حاولتْ إقناعي بذلك، وذهبتْ إلى الفراش، ولكن ذلك الشعور يُراودني.. شعور مُرعب أن هناك أحدًا ما ينظر لي من خلف ظهري.

القشعريرة الباردة تغزوني في سرعة.. كدت أنهضُ من الفراش حينما ساد الظلام فجأة، كنتُ أتحسَّس بجوار الفراش حتى أجد قداحتي، وبالفعل وجدتها، وما إن ضغطت عليها حتى انطلقت صرخة مكتومة مني.. فأكاد أُقسم أنني، ومع لهب القداحة قد شاهدت وجهًا.. لا لا لا ليس وجهًا.. فلا وجود لوجه بتلك البشاعة.

كنتُ أنتفض في عنفٍ من هول الصدمة.. حتى أنني كنت متخوّفًا من إشعال القداحة مرة أخرى، ووسط الظلام قرّرت مغادرة الغرفة.

أتحسس طريقي بصعوبة.. هأنذا قد خرجت إلا أن الصدمة ألجمتني.. فهناك في تلك الغرفة المغلقة بجوار دورة المياه.. كان الضوء الأحمر.. ظاهرًا بشكل رهيب.. ضوء أحمر دموي، والباب.. الباب مفتوح.

بين الهلع، والخوف، ونبضات قلبي المتسارعة.. كنت في موقف لا أحسد عليه حتى أنني تراجعتُ حتى ارتطم ظهري بالجدار.. كيف تنبعث أضواء من الغرفة والكهرباء قد انقطعت من الأساس؟، من قام بفتح ذلك الباب؟.. لقد حاولتُ جاهدًا أن أفتحه، ولكنني لم أستطع، والآن هو مفتوح.

لن أشعل القداحة..

حكي لي والدي أنهم، ومنذ زمن كانوا يشاهدون أشياء غريبة في الأرياف، وكان أفضل شيء هو ألا تنظر إلى ذلك الشيء المخيف حتى ينتهي.. هل مطلوب مني أن أُغمض عيني، وألا التفت إلى باب الغرفة المفتوحة.. سامحني يا أبي ورحمك الله.. مستحيل.

دقائق تمرُّ، ولم تعد الكهرباء.. سوف أتحرك بهدوووء حتى أصل إلى باب المترل، ومنه سوف أخرج للشارع.

بدأتُ أتحرك في حذرٍ شديد، وظهري للحائط، وارتطمت بالتلفاز لحسن الحظ أنه لم يقع، ولكن تلك الفازة الأثرية ارتطمت بالأرض في قوةٍ محدثة دويًّا هائلًا وسط ذلك الصمت المُطبِق.

سوف أهرب من ذلك البيت، وليكن ما يكون، وما إن بدأت التحرك حتى انغلق باب الغرفة في قوة رهيبة، وما هي إلا لحظات حتى عادت الإضاءة مرة أخرى.

لن أصمد طويلًا.. هذا هو شعوري ....

لن أصمد طويلًا ناحية تلك الأجواء المرعبة.

فتحتُ باب المنزل لأتنشق بعض الهواء حينما أمسك بي شيء من ظهري، وتوقف الوقت، وتوقف المكان والزمكان، وكل شيء.. حتى نبضات قلبي كانت تنتظر لتعرف هل ستنبض مرة أخرى أم تكتفي بما قدمته طوال حياتي؟

هناك شيء يمسك بي.. خيالي انطلق ليرسم ألف ألف ألف وجه.. حتى أنني اعتقدتُ أنها روح أم شافعي، وقد عادت للانتقام مني، وحينما استجمعتُ شجاعتي، ونظرتُ للخلف، وليكن ما يكون.. فوجئتُ أن ما يمسك بي هو طرف من الإيريال الخاص بالتليفزيون، وقد علقَ في ملابسي بعدما تحرَّك من فوق الشاشة عندما ارتطمتُ بها.

إنها ليلة مفزعة.. هذا هو كل شيء.

خرجت من المنزل بعدما عادت الكهرباء.. لن أستطع أن أدخل المنزل قبل أن يبزغ النهار.. شئت أم أبيت.

هكذا كنتُ أتجوّل بلا هدف وسط نباح الكلاب على ذلك الغريب الذي كسر التابو المقدس بعدم السير في وقت متأخر في الشوارع بعد منتصف الليل، ولكن يبقى التساؤل:

- أين سأقضي الساعات القادمة؟!.

كنتُ أفكر في الذهاب إلى الثلاثي الذي أعرفه، ولكن ذلك مستحيل.. في ذلك الوقت المتأخر هل أذهب إلى الحقل؟

فكرت، فكرت ونجمت كثيرًا، لكنني لم أعرف أبدًا أحزانًا تشبه أحزانك، وانفجرت ضاحكًا مثل المجانين.. كنتُ أغني جزءًا من قارئة الفنجان لعبد الحليم،الحقيقة أنني قد أصبح لديَّ صفات جديدة، ومنها مثلًا الدمج بين ما أفكِّر فيه والواقع.. هو نوع جديد من الخبال أعتقد أنني أسير في طريقي إليه بنجاح مُنقطع النظير.

ها قد وصلتُ إلى الحقل.. أي مخبول الذي يوجد في حقل أقاربهم بمفرده في ذلك الشتاء القارس.. ليس هذا هو المهم.. ما يهمني الآن هو أنني في حاجة إلى كوب من الشاي الساخن.

كنتُ أتحدث مع نفسي بصوت خفيض، أصوات عواء تأتي من بعيد.. غير معروف هل هو ذئب أم كلب ينوي التحوّل مثل المستذئب؟ سوف يصبح مستكلب.

وانطلقت ضحكتي عالية.. حتى أنني قد وضعت يدي على فمي لأكتمها.

- مين اللي هناك؟!

انطلق ذلك الصوت بجوار الكوخ المصنوع من الخوص الذي أجلس فيه.

أنا أعلم أن هناك غفراء في القرية.. ربما هو أحد منهم.

رددت عليه:

- أنا نادر زهران.. قريب أشرف، وأسامة.

بعد لحظات ظهر لي الرجل الذي يضع البندقية العتيقة على كتفه مميز بشاربه الكبير، وكذلك الطول الهائل.. نسخة حقيقية من الغفير:

- أهلًا بيك يا أستاذ نادر.. حصلتلنا البركة

- الله يخليك يا رب.

- أنا حامد المرعشلي.. غفير هنا في البلد.

- إلا انت قاعد لوحدك ليه يا أستاذ نادر؟.. فين الرجالة؟

أجبته وأنا أعطيه لفافة تبغ:

- روّحوا من شوية.. بس أنا حبّيت أقعد هنا، أتمتع بالجو الجميل ده.

ضحك الرجل بشدة، وهو يُشعل سيجارته:

– تمتع بإيه بس دا الجو برد مووووت.

قلتُ له وأنا أغلق الجاكت على عنقي:

– أهو أحسن من القاهرة.

وافقني الرأي، وهو يهز رأسه:

– عندك حق والله.. طيب أقولك إستنى أعمل برّاد شاي، واجيبهولك ندّفى بيه.

– الله عليك يا عم حامد.. هو ده وقته فعلًا.

وبعد عدة دقائق حضر الغفير، وهو يمسك بكوب من الشاي.

– اتفضل يا أستاذ.

– تسلم يا عم حامد.

استغربت وأنا أسأله:

– أين شايك؟ أنا هشرب لوحدي، ولاّ إيه؟

يضحك عم حامد، وهو يقول لي:

– والله السكر اللي كان هناك يا دوب يعمل كوبايه، وأنا عملتهالك.

نظرت له باتساع عيني:

- إزّاي بس كده؟!

وحاولت أن أعطيه بعضًا منها، ولكنه حلف، وأقسم أنه لسه شارب من شوية، وجلس يحكي لي عن مغامراته في القبض على اللصوص، وكيف أنه استطاع في آخر حادثة منذ سنتين أن يقتل لصًّا كان يحاول سرقة جرار، وكيف تم تكريمه من عمدة البلد، وحكى لي عن أنه، ومنذ أن قام بقتل ذلك اللص، وشبح اللص يجوب الحقول في المساء، وانطلق ضاحكًا كاشفًا عن أسنان فضية لامعة.

كنتُ مستمتعًا بحديثه الذي يجعلني أخرج من نطاق أفكاري الغريبة..

- إلا باقي قد إيه على الفجر يا أستاذ نادر؟

نظرت في ساعتي وأجبته:

- متبقي عشر دقائق يا عم حامد.

انتفض الرجل في عنف، وهب واقفًا:

- يااااه أنا اتأخرت قوي.

نظرتُ له بدهشة:

- اتأخّرت على إيه؟

تعلثم، وهو يتحاشى النظر لي ثم قال:

- إتأخرت على الدورية اللي قبل الفجر.. لازم ألف على دوار العمدة قبل الفجر.

حاولتُ أن أثنيه ليجلس معي، ولكنه كان مُصرًّا على موقفه، وألقى عليَّ السلام، ومشى بضع خطوات قبل أن ينظر لي، واختفى في الزراعات.

صوت آذان الفجر.. تلك الراحة الربانية.. سوف أذهب لأصلي الفجر.. الخدر يسري في أطرافي.. سوف أنتظر إقامة الصلاة لأذهب.

حرّكت جسدي المُنهك داخل تلك العشة الصغيرة، ووجدت نفسي أدخل في سُباتٍ عميق.

- نادر.. إنت يابني.. إنت هنا واحنا قالبين الدنيا عليك.. يا نهار أزرق.. إنت يا بني.

انتفضتُ في عنف.. لأجد نفسي نائمًا في جانب الكوخ، وأمامي أسامة وأشرف، وهم في منتهى الحيرة.

فركت عيني في كسل شديد:

- في إيه بس؟

رد عليَّ أسامة في جزع حقيقي:

– يا بني الساعة ثلاثة العصر، وروحنالك البيت، وخبّطنا لما تعبنا، وافتكرناك خرجت تجيب حاجة، واستنيناك، ومرجعتش قولنا يمكن نزلت مصر، وجينا هنا لاقيناك نايم.. إيه اللي جابك، وليه نمت هنا في العشة دي؟

بالطبع لم أحكِ لهم ما حدث في المترل، ولكنني حكيتُ لهم عن أنني شعرتُ بالملل، وحضرت إلى هنا، وكيف أنني قد قابلتُ الغفير حامد الشعراوي.

نظروا لي في ذهول، وهم يُصحّحون لي:

– تقصد حامد المرعشلي؟!.

فأجبتهم:

– أيوووه هو ده حامد الغفير.. قعد معايا، وعملّي كوباية شاي.. الله يكرمه.

كانوا في ذهول تام وأعينهم تكاد تغادر محاجرها من الذهول:

– هو في إيه بالظبط مالكم مبحلقين فيّا كده ليه؟!.

نظر لي أسامة في رعبٍ:

– إنت بتقول قابلت مين؟

أجبته في ملل:

- قلتلك قابلت الغفير حامد المرعشلي ده..إيه المشكلة مش فاهم أنا.. هو في حاجة؟!.

وبنبرات مهزوزة أجابني أشرف:

- أيوه في يا نادر في.

بنفاد صبر نظرت له:

- في إيه بقى؟!

رد عليَّ بكلمات مرتعشة:

- في أن حامد المرعشلي اللي بتقول عليه ده.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وأخذ يتلفت حوله في رعب.

- إنه.. إنه.....

- متقول يا عم.. هو سر؟

- لا يا نادر مش سر ولا حاجة بس حامد الغفير اللي بتقول عليه ده مش ممكن يكون قعد معاك ولا جابلك شاي!!

بتحدٍّ أجبتُه:

- ليه إن شاء الله.

أجابني بخوف حقيقي:

- لأن حامد الغفير اللي بتقول عليه ده إتقتل من سنتين وهو بيقبض على حرامي جنبنا هنا.. فهمت بقى؟!.

- إتقتل؟

ولوهلة تذكّرت حديثي مع حامد الغفير:

- شبح الراجل الحرامي بيلف في الأرض بليل.

- لازم أمشي قبل الفجر.

- مش هشرب شاي لأني لسه شارب.

إن حامد هو نفسه الشبح.

لقد سمعت أن أشباح القتلي تعاود الظهور في أماكن حدوث الجريمة.

- يعني اللي كنت قاعد معاه طول الليل شبح؟

كنتُ أقولها وأكررها، وانطلقت ضحكتي عالية.. حتى أن أشرف، وأسامة تراجعوا للخلف، وهم يستعيذون من الشيطان.

- حسنًا أعزائي لقد قضيت الليلة برفقة شبح.. ذلك كل شيء.

الإحساس بالإغماء ممتع.. هل جربتموه؟

بعد تلك الحادثة أدرك الجميع أن هناك شيئًا ما يحدث معي.. أشرف يعتقد أنني ممسوس، أسامة يعتقد أنني مخاوي.. أما هشام فرأيه هو أنني قد فقدتُ عقلي تمامًا.

أربعة أيام مرت الآن، وأنا ما زلتُ هنا، لم أعد للقاهرة أو بمعنى أصح لم تأتِني الأوامر للعودة إلى القاهرة.

وما بين أصوات غريبة إلى لمسات من أشياء غير موجودة إلى فتح أبواب الغرف وغلقها في قوة.. لم يحدث شيء.

إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة..

في ذلك اليوم ووسط فيضان من النظرات المشككة التي انطلقت من أبي شافعي، وشافعي نفسه ناحيتي.. اتفقنا أن أفضل وقت للبدء في الحفر هو هذه الأيام.. فمن سوف يتخيل أن رجلًا تُوفيت زوجته سوف يقوم بالبحث عن آثار في نفس الأسبوع.. هي فكرة صعبة، ولكنها خطرت لي، وأقنعت شافعي ووالده بها، وأحمد الله أنهم اقتنعوا.

أسامة وأشرف، وهشام دائمًا جاهزون، أمامنا يومان لنبدأ.

كان الاتفاق فيما بيننا أن نقوم بالحفر من داخل المنزل القديم، ونبدأ في ذلك بعد صلاة العشاء.

أسامة وأشرف، وهشام سوف يقومون بالحفر ومعهم شافعي، ووالد شافعي سوف يكون بجواري لنساعدهم أن أحتاج الأمر لذلك.. إنه اليوم المنشود

كنت أتجاذب أطراف الحديث مع أسامة، وهشام داخل محل بقالة الأخير، وأحاول أن أعرف منه بعض المعلومات عن ذلك المترل الذي سوف نبحث فيه عن الآثار.

- والله يا نادر شوف من فترة وجه أكتر من شيخ، وكلهم قالوا إن في خير كتير تحت.

قاطعه هشام:

- والله يا نادر في شيخ منهم قال في معبد تحت.. فاهم يعني إيه معبد؟

كان يتحدث بحماسة شديدة..إن حلم الثراء السريع..ممتع بشدة.

نظرت لأسامة فوجدته شارد الذهن:

- إاااييييه.. أخينا.. إنت يا عم أسامة.. ذهنك؟

نظر لي، وهو يحاول أن يخفي شيئًا ما.. لقد شعرت بذلك.. حتى أنني سألته بشغف:

- في إيه يا أسامة متتكلّم؟!

بتردّد أجابني، وهو يشعل لفافة تبغ:

- في واحد من الشيوخ قال بلاش نفتح المكان ده، وحذّرنا منه جدًّا.

قاطعه هشام في حدة:

- يا عم سيبك منه دا واحد بس اللي قال كده، وكل الشيوخ قالوا إن فيه أثارات.. يبقى هنصدق واحد، ونكدّب الباقيين كلهم.. يا راجل كبّر مخك.

بدأت أتوتر، أشعر بذلك جيدًا حينما أبدأ في قضم شفتي السفلي بأسناني، سألت أسامة بهدووء:

- طب قولي يا أسامة الراجل اللي رفض إنكم تدوّروا على آثار مقالش السبب إيه؟

وهنا التفت أسامة لهشام، وتلاقت نظرتهم، وكأنني ضغطت على جزئية حساسة:

- في إيه متتكلموا.. هتخبّوا عليّا ولاّ إيه؟!.

نحّا هشام ناظريه بعيدًا.. فنظرت إلى أسامة:

- إتكلم يا أسامة في إيه؟

وبتوتر أجابني:

– ملحقش يقول يا نادر.

نظرت له باستغراب:

– يعني إيه ملحقش يقول؟

أجابني بحزن:

– يعني ملحقش يا نادر.. لأنه لما مشي من معانا كنا المفروض هنتقابل بليل عشان يحكيلنا بالظبط إيه السبب في إننا مندورش على آثار.. بس للأسف.

بنفاد صبرٍ سألته:

– للأسف إيه يا ابني؟ انطق.

– للأسف مات قبل ما نقابله .

نظرت له بذهول

مات؟

أجابني:

– أيوه يا نادر .. بيته إتحرق، ومنجيش من البيت أي حد نهائي.

هززت رأسي، وأنا أتمتم:

– الله يطمنك.

وتفرّقنا على أن نلتقي في المساء وما زال كلام أسامة يدور في عقلي كدوامة مخيفة تلتهم كل أفكاري في عنفٍ.. هل هي مصادفة أن يُتوفَّى الشيخ الوحيد الذي رفض أن يقوموا بالحفر.. ربما.

التقينا في المساء.. جميعنا موجودون.. قرأنا الفاتحة على الخائن وأن نراعي الله وأن نُقسِّم بيننا أي شيء قسمة العدل، وعلى ضوء الكشّافات أو ما يطلقون عليه الكلوبات.. بدأنا.

مرّت ساعة الآن، ولم يصلوا إلى أي شيء أو حتى علامة.. بين الحين، والآخر يُحضِر لنا الحاج محمد الوزاني أكواب الشاي..

ثلاث ساعات، ولم نصل إلى أي شيء.

صوت ارتطام الفؤوس في الأرض لم يتغير.

وبينما الجميع بدأ يساورهم الشك في وجود شيء ما من الأساس..سمعنا جميعًا صوت ارتطام الفأس بشيء صخري.

هكذا انتفضنا جميعًا، كان شافعي هو من ارتطمت فأسه بذلك الشيء الصخري.

متقمصًا شخصية "إدوارد فولفي".. طلبت من الجميع أن يتوقفوا، ويدعوني أشاهد.. الحقيقة أنني في تلك المرحلة من حياتي لم يكن لديَّ أيُّ خبرةٍ بعلم الآثار المصري، ولكنهم شعروا أنني بالفعل خبير جدًّا فيه، والحق أنني لم أكن أعلم أي شيء حتى عن "إدوارد فولفي" ذلك،

ولكنني كنت مدفوعًا بالكيان الغريب الذي طلب مني مساعدة أبي شافعي..قلتُ لهم:

- حسنًا من الواضح أنها إحدى سلالم.. لنُكمل الحفر.

حاول أسامة أن يطلب قسطًا من الراحة، ولكنني أخبرته أن لا مجال لإضاعة الوقت.

ذلك الصوت الخافت بداخلي يؤكد انهم في طريقهم الصحيح.

- استمروا في الحفر بعنايةٍ.

هنا وقفت، وأخبرهم أن أمامنا أربع سُلمات فقط فالمكان قريب جدًّا.. بل أقرب مما تتخيّلون.

نظر لي شافعي في شكٍّ، وهو يسألني:

- وانت عرفت منين يا نادر؟..عرفت منين انهم خمس سلالم بس؟

وبسرعة بديهة أُحسد عليها..أجبته:

- إن الدفن الفرعوني في المنوفية يتكون من سلم من خمس درجات، ويكون عكس اتجاه شروق الشمس،وكل منطقة لها أسلوب دفنها.

لقد نجحتُ في إقناعهم.. كنت أضحكُ في داخلي مما قلته للتوِّ، ولكني نجحت للدرجة التي جعلت هشام تتهللُّ أساريره، وهو يقول:

- الله عليك يا نادر.. يا بتاع الآثار يا متحنط.

وانطلقت ضحكاتنا.

متبقي درجة واحدة، ومن بعدها سوف نأخذ قسطًا من الراحة.

وبالفعل قمنا بكشف الدرجة الخامسة ذات اللون الأحمر القاتم.

منذ متى يستخدم قدماء المصريين اللون الأحمر في درجات السلم؟

بعد تناول وجبة سريعة بدأنا نكمل.

أخبرتهم أن أمامنا عشرين سنتيمترًا من الحفر لنصل إلى الباب.

لم يتمالك أشرف نفسه:

- والله يا نادر إنت مخاوي.

نظرت له ضاحكًا.

- يا عم مخاوي مخاوي بس نلاقي الآثا.

قالها هشام، وهو يحفر حينما ارتفع صوت ارتطام فأس بشيء معدني.

هرولت ناحيتهم لأنظر إلى مصدر ذلك الصوت.

- غريب.

قُلتها بلا وعي.

فأمامنا كان هناك شيء يُشبه القرص المعدني.. قمتُ بتنظيفه بيدي في سرعةٍ لأجد عليه نقوشًا غريبة لبعض الحيوانات.. مثل الأبقار، ولكنها ذات رأس طويل أكثر من واحدة، وفي أعلى القرص ناحية اليمين شيء يُشبه الشمس شمس حمراء دموية، وفي منتصف القرص المعدني كان هناك شيء يُشبه الطيور طيور غريبة جدًّاااا.. فمنذ متى كانت الطيور لها قرنان في أعلى رأسها؟!.

لم أوضّح أي شيء لهم، وأخبرتهم أن نكمل ما بدأناه، وأن ذلك القرص لا يوضح شيئًا.

نظر لي الحاج محمد، وكأنه أدرك أنني أكذب.. فأشحتُ بوجهي عنه، وطلبتُ منهم أن نسرع.

بعد دقائق كان هناك شيء يُشبه الكُوَّة، وغطّاه بما يطلق عليه العجنة.. أي جزء من مادة تُشبه الجبس والأسمنت.

طلبت منهم أن يقوموا بإزالتها، وما إن ارتطم الفأس بها حتى شعرنا بتلك الاهتزازة الخفيفة من تحت أقدامنا!!

الفزع انتاب الجميع فجأة، ونظرنا إلى الكوّة لنكتشف أنها قد تلاشت تمامًا، وهناك شيء يُشبه السلم المعدني قائمًا رأسيًّا.

– سوف نهبط.. بالطبع سوف نهبط.

باستثناء الحاج محمد فعُمره لا يسمح بذلك.. سوف نهبط جميعًا للأسفل.

إنهم مدفوعون بقوةٍ للبحث عن المال.. أما أنا فكنتُ أبحث عن الخلاص.. فقط الخلاص مما أنا فيه.

أحضرنا الكشّافات، ونزلنا بهدوء.. كنا نعتقد أنهم مجموعة من الدرجات، ولكن الكارثة هي أننا نهبط للأسفل منذ خمس دقائق كاملة..

– هي السلالم دي مالهاش نهاية.

قالها شافعي.. فأجابه هشام.

– اصبر يا شافعي مافيش حلاوة من غير نار.

كان أسامة هو من يتقدمنا، وكنت أنا الأخير.

أخيرًا وصل أسامة، وهو يصرخ بفرح

– وصلنا خلاص السلالم خلصت.

تهلّلت أسارير الجميع، وبالفعل وصلنا جميعًا إلى نهاية السلم الحديدي.. هل كان لدى الفراعنة سلالم حديدية؟

كنا نتحرك متلاصقين، ونحن نتوجه بالكشافات لاستكشاف تلك الغرفة.. لا وجود لأبواب من أي نوع.. فقط حجرة هائلة الحجم، وحينما اقتربنا أكثر من الجدران وجدنا المزيد من ذلك القرص المعدني الذي وجدناه بالأعلى، وكلها تم وضعها في الجدار.

تحدّث أسامة:

– وبعدين يا جماعة هنعمل إيه؟؟

ردّ عليه أشرف:

– أكيد هشيل الأقراص المعدن دي يمكن نلاقي وراها حاجة.

– وانا بردو بقول كده.

قالها هشام، وهو يُخرج تلك المُدية المعدنية من جيبه، ويحفر بها خلف أحد الأقراص الموجودة في الجدار.. حاول مرة ومرة ومرة، وفي النهاية تزحزح القرص المعدني، وسقط على الأرض في صوت مدوٍّ كيف يحدث ذلك الصوت والأرض ترابية لم أعلم، ولكننا نظرنا في الكوة خلف القرص الساقط أرضًا لنجد شيء كبير موضوع فيما يُشبه الكفن، ولكنه كان أسود فاحمًا.

حاول شافعي أن يقوم بجر ذلك الشيء، وقبل أن أُحذِّره كان الشيء قد خرج، وسقط على الأرض.

وجَّهنا الإضاءة نحوه، وتعامَلَ هشام بمُديته ليمزق تلك التلافيف القماشية السوداء، وهو يتمتم:

– إيه ده؟.. كأنه قماش مَحروق.

وكان له حق فيما يقوله فبالفعل تغطَّت يداه تمامًا بلون أسود.

ساعده شافعي في فكِّ تلك الألواح القُماشية، وانتفضنا جميعًا في عنف.. فالكفن الأسود كان يحتوي في داخله على جثه.. جثة لا تشبه

أي شكلٍ بشريٍّ عرفناه من قبل.. هي جثة لشيء يكاد يُشبه البشر، وقد احترق عن آخره، وتفحّم ولم يبقَ منه سوى عظام بارزةٍ، ومن أعلى رأسه كان هناك قرنان صغيران.

انتفض شافعي في عنفٍ:

– أعوذ بالله. دا شيطان.. شيطان.

صرختُ فيه:

– اسكتْ يا شافعي، اسكت.

أما أشرف فقد انتابته حالة من الهلع هو الآخر:

– عشان كده الشيخ قال مندوّرش على آثار.

نظرت له في صرامةٍ:

– اسكت يا أشرف، اسكت وخلينا نشوف هنعمل إيه؟

وفجأه نظر أشرف إلى أسامة، وأمسكه من قميصه، وهو يصرخ به:

– ليه كدبت على نادر ومقلتلوش الحقيقة؟

كررتُ الكلمة وراءه:

– الحقيقة؟ حقيقة إيه متفهموني في إيه؟

تدخّل هشام ليبعد أشرف عن أسامة، وهو يكمل:

- مافيش حاجة يا نادر.

صرخ فيهم شافعي:

- متفهّمونا في إيه بالظبط ؟

فأجاب أسامة، وهو ينظر لي بخوفٍ:

- أنا كدبت عليك يا نادر.

قاطعته:

- كدبت عليا في إيه؟؟.. متتكلم ...

فأجابني، وهو يتعلثم:

- الحقيقة أن كل الشيوخ قالوا بلاش نفتح المكان ده.

اتسعت عيناي، وهو يكمل..

- والشيخ الوحيد اللي قال نترل،ونفتحه مات في الحريقة.. هي دي الحقيقة.

صرختُ فيه بعنف:

- وكنت بتكدب عليا، وتقولي كل الشيوخ قالوا ندور على آثار، ويطلع فالآخر إنهم قالوا متدوّروش هنا؟!

انتفض شافعي الذي سرح في كلامنا وهو يقول:

- أنا طالع من هنا.

أمسك به هشام من كتفه فأزاحه شافعي في عنف وعصبية:

- إوعى إيدك.. أنا مش عاوز أموت هنا.

قالها، وهو يضع يده ليمسك بالسلم المعدني ليبدأ الصعود، ولكنه لم يتحرك قيد أنملة، وتلفّت حوله كالمجنون، وهو يدوّر بالكشاف:

- السلم فين؟.. راح فين السلم؟.. لازم أخرج من هنا.. لازم أخرج.

لقد اختفى السلم تمامًا اختفى بلا أدنى أثر وكان الحوائط قد ابتلعته، وبمنتهى القوة سدَّد لكمة هائلة إلى وجه هشام، وهو يصرخ:

- إنتو السبب، إنتو السبب.

انتفضَ أشرف، وأسامة من هول الصدمة على صوت صرخات هشام الملُقى على الأرض، وأعينهم تُطلق الشرار..فالانتقام من شافعي لا بد منه، وقبل أن تبدأ المعركة بدأت أصوات ارتطام رهيبة تتوالى في الغرفة، وأمام أعيننا الذاهلة كانت الأقراص المعدنية تتهاوى، ومن خلفها كانت تلك الأكفان تتحرك جاهدة لتخرج من فتحات الجدار.

- مستحيل.

قلتُها في ذُعر حقيقي.. قلتُها، وأنا أشاهد مئات الأقراص تتهاوى، ومن خلفهم برزت أجزاء من تلك الكائنات، ووسط صرخاتنا.. كنا نبحث عن أي وسيلة للهروب.. أي وسيلة.

الأجساد تتساقط خارج فتحات الجدار، وتنطلق منها أصوات رهيبة.

انترعتهم من الذهول، وأنا أصرخ بهم:

- يلا نخش فاحة من الفتحات دي.. ممكن تكون دي الوسيلة الوحيدة علشان نخرج من الكابوس ده.

بالفعل حشرت جسدي في إحدى الفتحات، وبدأت أزحف فيها، وهي تتسع شيئًا فشيئًا، ومن خلفي كانت أصوات باقي المجموعة وهم يطالبونني بالإسراع.

ولم أكن في حاجة إلى نداءاتهم.. فبعد لحظات وجدت نفسي، وهم معي نهوى في تلك الفجوة العميقة، وانطلقت صرخاتُنا عاليًا.. كنا نشعر أنها النهاية، وأخيرًا ارتطمنا بأرض مملوءة بتلك الجثث، كنا نتألم في شدةٍ من قوة الارتطام.. غير مُصدّقين لما يحدث.. صرخات غير مصدقة نهائيًّا لما نمر به.

وفجأة ووسط الظلام الدامس.. أضاء كل شيء في لحظة.. لنجد أنفسنا محاطين بمجموعة من الأشخاص المتشحين بالسواد، الممسكين بأسلحة معدنية لامعة، وساد الصمت المُطبق.. صمت ثقيل مخيف، ومن خلفنا انطلق ذلك الصوت الجهوري الرهيب، وبلغةٍ غريبةٍ لم يتعرف إليها أحد سواي تحدّث ذلك الشيء القادم من الظلام:

- ها قد عُدتَ إليّ من جديد يا آدمي.

وبرعب لا حدود له أدركتُ من هو صاحب الصوت.. إنه نفس الكاهن الذي شاهدتُه في حلمي.

وكأنه قرأ أفكاري.. فأجاب:

- كلّا يا آدمي، لم يكن حلمًا.. لقد كان حقيقةً، ولكن عقلك المحدود فسّرها على أنها حلم.. قيِّدوهم.

صرخ بالحراس الذين أمسكوا بنا بمنتهى العنف، وقاموا بتقييدنا في سلاسل حديدية إلى الجدار.

أشرف يسألني عما يحدث، وكذلك فعل الباقون، ولكنني لم أرد.. بل كنتُ أنظر إلى ذلك الحارس الذي اقترب، وحلّ قيود شافعي، وأمسك به بعنف، واستسلم له شافعي كأنه طفل صغير.

وعلى ذلك المذبح وضعوا شافعي، وأشرف وأسامة يصرخان في عنف، وأصدرَ القائد أمرًا ما لم أسمعه، ولكن كل ما رأيناه هو رأس شافعي وهو يتدحرج أمامنا، وانطلقت الصيحات من كل صوبٍ.

وفجأةً حلّ صمتُ مُطبِق لم يقطعه سوى صوت ذلك الرجل، وهو يقول بلغته التي أفهمُها، ولا أعرف سِرَّ ذلك:

- أحضروا لي الباقين.

انتزعونا من أغلالنا، ووضعونا مُمددين، ومُكبَّلين على المذابح.

حاول أشرف أن يُقاوِم، ولكنه تعرَّض للطمة هائلة أطاحت بعدد من أسنانه ليتوقف الجميع عن المقاومة.

أصدرَ القائد ذلك القرار في فرحة، وتبعَه تهليل من الأشخاص الموجودين بالقاعة الراكعين أمام المذبح، ونظر لي القائد نظرةً أخيرة، وهو يضحك:

- وداعًا يا آدمي.

ثم أشار لحراسه:

- اقتلوهم.

وانطلقت صرخاتنا عالية.. صرخات أشخاص يعيشون آخر لحظات في حياتهم.

إن انتظارك للموت في مثل هذا الموقف هو الطبيعي، ولكن أحيانًا تتخلّى الطبيعة عن عاداتها من أجل أشياء أخرى.. فبعدما أيقنّا تمامًا أننا نعيش آخر لحظاتنا، ومن قلب الفراغ.. نعم الكلمة صحيحة.. فبالفعل من قلب الفراغ داخل ذلك البهو انطلقت إضاءات قوية للغاية.. إضاءات غشيت أبصار الجميع.

وفي منتصف البهو ظهرت تلك المجسمات شِبه البشرية التي يشع النور من حولها في قوة:

- إنهم أشبه بالملائكة.

قالها أشرف في ذهول حقيقي، ومعه كل الحق.. فتلك الأجساد المشعة كانت تشبه الملائكه لو كنا نعرف شكل الملائكه الحقيقي من الأساس.

وما هي إلا لحظات، وانتهى ذلك الذهول، وبدأت الحرب.. نعم حرب شنيعة.. انطلقت منذ وصول تلك الكائنات المضيئة.. فمع وصولها جُنَّ جنون الكاهن، وأخذ يصرخ في الموجودين من جنود، ومستعبدين أن يقتلوا "الفاليتر".. أما الكائنات المضيئة التي عرفنا أن اسمها "الفاليتر" فكانت تُخرج من جعبتها أشياء تشبه السِّهام، وتطلقها على الموجودين في البهو، وما إن يلمس ذلك السهم أحد الأجساد يضيء الجسد بشدة ثم يتحوّل إلى أشلاء.. ليست أشلاء من لحم ودم ولكنها أشلاء من نور.

أصبح الوضع كارثيًا بالفعل "الفاليتر" عددهم حوالي خمسة، وعدد الأوغاد في تلك القاعة أكثر من مائة فرد.. أحد الفاليتر أُصيب بذلك السلاح المعدني في ظهره، ولكنه لم يستسلم بل أخذ يُخرج تلك السهام، ويضرب بها أفراد تلك المجموعة، ولكنه لم يستطع تحمُّل الضربة الجديدة التي تلقاها.. فانهار في النهاية، وهو ينظر لي.. كان ينظر لي بنظرة غريبة، وعلى ذلك الوجه المضيء تحت ابتسامة تبعها أن أخذ ينتفض مرة ومرة ومرة،وانفجر في قوة انفجارًا هائلًا ومكتومًا ومضيئًا حتى أنه أطاح بشخصين من المحيطين به.

المعركة مستمرة، أشرف يحاول التخلُّص من قيوده، وأسامة وهشام يشاهدان ما يحدث وقد أذهلما ما يشاهدانه.. أما أنا فقد كانت نظراتي مُعلّقة بذلك الرجل الضخم المُمسك بسكين هائل الحجم، ويتحرك نحونا أو لنقل نحوي أنا خاصةً.

كان الرجل قد تناسى كل ما يحدث، وركّز نظراته عليَّ أنا، وبالطبع لا حيلة لي، ولن أفعل أي شيء وأنا مُكبَّل هكذا.

اقترب مني الرجل،وهو يرفع سكينه عاليًا مُرددًا كلمات لم أتعرف إليها، وقبل أن يلمس سكينه رقبتي.. كانت الدماء تُغرق وجهي.. واحد من "الفاليتر" يضع شيئًا معدنيًّا في رقبة الرجل.. الذي تحشرج صوته،وأصدر خوارًا رهيبًا، وسقط غارقًا في دمه.. أما ذلك "الفاليتر" فقد اقترب مني، وأنا أتفحَّص ملامحه في ذهول، وبدون أن تتحرك شفتاه، وصلني ذلك الصوت:

"إنها فقط البداية.. لو لم تساعدنا فالقادم أسوأ بكثير مما تتخيل".

وصلتني رسالته العقلية، وهو يُحرِّرُني من الأصفاد الحديدية، وكذلك فعل مع هشام وأشرف وأسامة، وأشار لنا أن نتبعه، وبصوت أشبه بالصفير انتبه له بقية "الفاليتر"، وهم في خضم تلك المعركه الشبيهة بمعارك الأفلام أشار لهم إشارة معناها أن ينطلقوا خلفه، ولكن للأسف في لحظات كان اثنان منهم ينتفضان في عنف ثم ينفجران، ولم يتبقَّ سوى آخر واحد منهم يحارب ذلك الجمع من

هؤلاء الأشخاص بمفرده.. حاولنا أن ننقذه، ولكن إشارة من الكائن الواقف بجوارنا أوقفتنا تمامًا، ومن يده أخرج شيئًا يُشبه الكرة المضيئة.. قرَّبها من شفتيه، وهمس فيها بشيء ما، وانطلقت الكرة في سرعة.. لتقف فوق آخر الكائنات، وهي تدور في سرعة، وتتعالى سرعتها مع إضاءة تبزغ من داخلها، وحجم الكرة يتضاعف أكثر، وأكثر، وهي ما زالت تدور في سرعةٍ أصبحت خرافية الآن.

وفي ذهول حقيقي تجمَّد الزمن تمامًا، كل ما هو في محيط تلك الدائرة تجمَّد، وفي سرعةٍ أشار لنا الكائن أن نتبعه.

كل ذلك يحدث في ثوانٍ معدودة.

الكائن ينطلق، وقدماه تكادان تلامسان الأرض، ونحن خلفه نركض في قوةٍ.

أخيرًا تحدّث أسامة بكلمات غير مفهومة، وله كل الحق أن يفقد قُدرته على الكلام.. فإن ما نشاهده بأعيننا مكانه الحقيقي أحد أفلام الخيال العلمي، وليس أكثر.

وصلنا إلى نهاية النفق الذي قادنا إلى بهوٍ كبير، وفي صمت نظر لي "الفاليتر" لتصل رسالته إلى عقلي في بساطة مُعتادة:

"لقد فعلنا ما في وسعنا من أجلك ومن أجلنا".

أجبته بصوت مسموع:

– ما الذي تفعلونه لأجلي؟، وما كل الذي يحدث من الأساس؟، وكيف أفعل شيئًا لأجلكم، وأنا من الأساس أُشبه الطفل الصغير التائه من والدته؟

أصوات خطوات كثيرة قادمة باتجاهنا..

اقترب مني الكائن في قوة حتى إن الإضاءة الصادرة منه كادت تلامس جبهتي من سخونتها..

"لقد أوشكتَ أن تفهم كل شيء.. فقط اتَّبع ما يصلك".

وفي هدوء أخرج تلك الكُرةَ، وهمس بشيءٍ ما.. ثم نظر لنا جميعًا، ونظر لي:

" إننا نُضحي بأنفسنا حفاظًا عليك.. أرجوك لا تخذلنا".

وأخذت الكرة تدور حولنا وحجمها يزداد، وكذلك سرعتها، وذلك الكائن يخرج من دائرتها متجهًا ناحية الأشخاص الذين وصلوا إلى تلك القاعة، ومن خلف "الفاليتز" كان الكاهن قد انقض عليه طعنةٍ من ذلك الخنجر الذهبي الكبير في منتهى العنف،والكاهن يبتسم، وهو يركل "الفاليتز" بقوةٍ، واقترب منا الكاهن وعلى وجهه علامات الغضب والغل محاولًا أن ينقض علينا بذلك الخنجر الذهبي، ولكن ارتدعنا في عنف.. فتلك الكرة المحيطة بنا قامت بدورها على أكمل وجه، ولم يكتفِ الكاهن بتلك المحاولة وهو يصرخ وينقض علينا مرة أخرى.

وفي لحظاتٍ أسرعت الكرة للغاية مع ذلك الضوء الصادر في عنف من خلفنا والذي يشير إلى مقتل آخر "الفاليتر"، ووسط صرخات الكاهن أخذت ملامح البهو تختفي من حولنا في سرعة، والكرةُ تدور وتدور.

وانتهى كل شيء، وتغيرت كل الأجواء المحيطة بنا تمامًا.

كنتُ أنا وهشام وأشرف وأسامة ومعنا أبو شافعي واقفين أمام الكوة التي وجدناها، وننظر لها كتماثيل متجمدة، وعلى بُعد خطوات منا كان آخر شخص نتخيل وجوده بجوارنا..

شافعي..

كنا نحدق كلا منا للآخر..

شافعي آفاق مثلنا، وهو يتحسَّس جسده، ويهتف في فرحة:

– أنا حي.. أنا حي، والله لسه عايش.

نظر له والده في ذهول:

– حي إيه يا بني.. جرا إيه؟ أنا رحت أصلي الفجر وجيتلكم لاقيتكم واقفين ومش بتكملوا حفر.. هو في إيه؟

كان كلٌّ منا ينظر للآخر غير مصدقين لما مررنا به منذ لحظات.

قطعت تلك النظرات، وأنا أتحدث إلى الحاج أبو شافعي:

- مافيش حاجه يا حاج.. إحنا مش هنكمل حفر النهاردة لأني تعبان شويه، وحاسس إني دايخ.. اتفضل انت يا حج ارجع البيت، وانا هقعد شويه مع الرجالة وبعدين هنروح ونبقى نكمل بكرا.

كان الرجل مرتابًا كثيرًا في أمرنا.. فبعد تلك الحماسة الطاغية ها نحن نغير رأينا، ونؤجل ما بدأناه.

أخذ يهز رأسه، وهو يتمتم ببضع كلمات، وتركنا، ورحل.. أما نحن.. فلكم أن تتخيّلوا ما نشعر به الآن.

- معناه إيه اللي حصل ده يا جماعة؟

قالها أشرف بذهول حقيقي.

فرد عليه هشام:

- يمكن يكون ده الرصد بتاع المكان، واللي إحنا شفناه ده كله هَيّؤات.

أيوه هو كده، ومفيش تفسير غير كده في رأيي.

كانت تلك كلمات أسامة.

أما شافعي فقد كان متوترًا للغاية، وله كل الحق:

- هَيّؤات إيه.. أنا شُفت نفسي بموت تحت.. فاهمين يعني إيه؟ كنت شايف نفسي بتقتل، وتقولّي هَيّؤات، ورصد..دا مستحيل.. رصد إيه اللي هيوصلّنا لكل ده.. متقولوا كلام عاقل.

صرخ فيه أسامة:

– إيه الكلام العاقل اللي هنقولوا يا شافعي.. هنقول إننا شوفنا ناس تحت الأرض، وشوفنا ناس شبه الملايكة.

–ملايكة؟!

قالها شافعي مُكرّرًا.. ليكمل أسامة:

– أيوه يا شافعي.. بعد ما انت مُت تحت الأرض ظهرت حاجة شبه الملايكة، وهي اللي أنقذتنا، ومكانتش بتتكلّم مع حد إلا نادر.

والتفتوا جميعًا لي.

– إنت اللي عندك تفسير كل ده يا نادر، ولازم تفهّمنا.

وبتُّ مرغمًا أن أحكي لهم كل شيء بالتفصيل.

أخفينا كل شيء، وذهبنا إلى منزلي حتى أحكي لهم كل شيء ..فلا يُستحب أن يجدنا سكان القرية واقفين هنا في الصباح الباكر هكذا.

حكيتُ لهم كل شيء منذ بدايته، وكيف كانت البداية لكل ذلك، ولكن حينما وصلتُ إلى جزء تلك الكائنات المضيئة التي تُدعى "الفاليتر" لم أستطع التفسير..فأنا بالفعل لم يكن لديَّ تفسير لظهورهم.

تدخَّل هشام قائلًا:

– مش يمكن "الفاليتر" دول تبع الست اللي بتظهرلك؟!

نظرتُ له نظرة خاويةً مُجيبًا:

- يمكن.

فعلًا.. أنا مش عارف أي حاجه..إنتم خبّيتوا عني اللي قاله الشيوخ عن المكان ده، وأنا خبّيت عليكم سبب وجودي في القرية دي كل حاجه.. كده أعتقد إننا خالصين.

وحينما عدتُ إلى المترل لم أحلم بشيء سواء أحلامَ عادية أو حتى كوابيس، ولم أكن أعلم أنني لستُ في حاجة إلى كوابيس تخترق أحلامي.. فقد كان الكابوس القادم حقيقيًّا.. حقيقيًا للغاية.

الموجة الثالثة



- كنت فين يا هشام طول الليل وراجع وش الصبح؟

إنها أنعام زوجته.. كانت ترتكن على باب الحجرة حينما دخل هشام صامتًا، ولم يجبها.

نظرتْ إليه مرة أخرى مُتشككةً:

- في إيه يا هشام؟ كنت فين للصبح كده؟

وللمرة الثانية نظر لها هشام نظرةً خاويةً، وأجابها:

- كنتُ مع نادر وأشرف وأسامة.

وكعادة كل النساء المصريات لم تترك الرجل في حالهِ وأصرَّت أن تكمل الاستجواب الرسمي:

- هو من يوم ما نادر ده جه البلد وانت كل حاجة فيك اتغيرت.. سهر كل يوم، ومش مركز في المحل، ولا واخد بالك من أي حاجة.. كانت جيته سودا.

بدأ هشام يستشيط غضبًا، وهي لا تتوقف عن الكلام:

- نادر ده جاي أجازة، وفاضي إنما انت وراك شغلك، وبيتك، وحياتك، ولازم تاخد بالك مننا شوية.. مش كده.

هشام يغضب أكثر وأكثر:

- اسكتي.

وبالطبع لم تسكت، وبعنادٍ أجابته:

- أسكت ليه يعني كل ده عشان خاطر سي نادر؟.. ميغور في داهية، هو احنا ناقصينه؟!.

وهنا لم يتمالك هشام نفسه، وهوى على وجهها بيده ليلطمها لطمةً هائلةً.. حتى هو نفسه لم يتخيل أن تكون بتلك القوة الهائلة، ومن هول المفاجأة صرخت صرخةً مملوءةً بالذهول وانهارت باكيةً.. أما هشام فكان متسمرًا في مكانه، وهو ينظر إلى يديه غير مصدق تلك القوة العاتية التي ضرب بها زوجته.

حاول أن يُراضيها، وأحضر القطن ليزيل تلك الدماء التي تترف من فمها، وهو غير مصدق لما حدث لتوِّه.

أما هي فكانت تنتحب في ذُعرٍ حقيقي:

– بتضربني يا هشام بعد خدمتي ليك كل العمر ده؟!.. بتضربني؟!

حاول جاهدًا أن يُرضيها.. حتى هدأت.

أما هو فكان يشعر أن هناك شيئًا ما على غير ما يُرام ...

بالطبع لم تستطع هي أن تنام.. أما هو فقد غطّ في نوم عميق.. بعدها بسُويعات لم تستطع النوم إطلاقا فقررت القيام ببعض المهام المنزلية ربما تتناسى معها ما فعله زوجها، وبعد حمله تنظيف معتادة تناولت ملابسه، وملابس الأولاد حتى تقوم بغسلهم، وكالعادة كانت تفتش الملابس جيدًا قبل أن تغسلهم، وفي جيب البنطال وجدت تلك البذور السوداء.. بذور سوداء جافة.. أخذت تتفحصهم، وفي قرارة نفسها اقتنعت بأنها نوع من المخدرات، وبالطبع نادر هو السبب.. هو القادم من القاهرة وبالنسبة لسكان الأرياف فالقاهرة هي مصدر كل الشرور، وكزوجة مخلصة، فتشت باقي ملابس هشام، ولم تجد شيئًا.. فخرجت من منزلها،وهي تكيل السباب لنادر ومعرفته السوداء، وتلفتت يمينًا ويسارًا، وقامت بحفر حفرة صغيرة في الأرض الطينية ووضعت تلك البذور.

هي الآن تشعر بالنشوة فسوف يبحث هشام عن تلك المخدرات، ولن يجدها، وسوف يتوقف عن تعاطيها، وحينها ربما تأتي مصيبة ما تطيح بنادر، وينتهي الكابوس.

كان ذلك هو ظنها.. مبتسمة كانت تضع الملابس في المياة المغلية، وهي تُكيل الشتائم للطفل الصغير الذي يجري بدون ملابس.. لقد نجحت خطتها.. أليس كذلك؟؟

- في طريق عودة أسامة، وبعدما افترق عن نادر وهشام وأشرف كانت الأفكار تلتهمه التهامًا.. ما حدث من المستحيل أن يكون حلمًا لقد عاش كل لحظة فيه.. كان يتمتم مع نفسه وهو في طريقه للمنزل:

- دا أكيد رصد المكان، مستحيل يكون حلم.

- لم يلتفت إلى تلك البقعة الطينية في الأرض الزراعية التي يسير فيها، وانزلقت قدماه في الطين.

- يادي النهار اللي مش هيعدّي.

قالها، وهو يحاول إخراج قدميه اللتن غرزتا في الطين تمامًا، وبنطاله الذي امتلأ عن آخره بالمياه والطين.. ليست هذه هي المشكلة.. ولنعيد المشهد بشكل بطيء، ونركّز بالكاميرا على محاولات أسامة للخروج من الطين.. نتزل لأسفل قليلًا..نعم هنا!!!!!!.. مع محاولات أسامة المستميتة لإخراج قدميه من الوحل، وجذبه الهيستيري للبنطال

كانت هناك بذور سوداء تتساقط من جيبه لتستقر في قاع الفجوة التي خلفتها قدماه.. شكرًا لفني الكاميرا.. أخذنا لقطتنا.. فركش.

لُيكمل أسامة طريقه للمنزل، وهو يركض حتى لا يراه الناس، وهو ممتليء بالوحل بهذا الشكل.

***

– العبيط أهوه.. العبيط أهوه.

– الأطفال يركضون خلف رجل كث الشعر، واللحيه ويرتدي ملابس مهلهلة.

– سعدية سعدية.

الرجل يلتفت لهم، وعيناه تكادان تجحظان من فرط الغضب، ويبحث عن حجر في الأرض ليقذف به الأولاد، وبالفعل يبتعد عنه الأولاد لأمتار قليلة ثم يُعيدون الكَرّة..

– سعدية سعدية.

إنه اسم طليقته.. هو لم يعد يدري هل هي زوجته أم طليقته، فقد فارقته منذ زمن، وتحديدًا منذ جُنّ جنونه، ولكنه يشعر بالإهانة حينما يُناديه الأطفال بذلك الاسم.

ها هو يصرخ في الأطفال، ويجري وراءهم، والأطفال في منتهى السعادة بتلك اللعبة الجميلة.. هو لن يؤذيهم وتلك هي الكارثة التي تجعلهم يتمادون.

يتدخل أحد المارة لينهر الأطفال، ويخرج بعض العملات من جيبه ليعطيها لخليل الذي ينظر للرجل مبتسمًا، ويأخذ النقود ثم يبصق على الرجل، ويركض ضاحكًا، ومن خلفه يُكيل له الرجل السباب:

– ماشي يا خليل يا مجنون، والله أنا غلطان يابن ال...

إن خليل ببساطة هو أحد المعاريض.. هل تتذكّرون ذلك الاسم.. الأفضل أن تتذكروه.

خليل يسير بغير هدًى متجوّلًا بين الحقول.. هناك من يعطيه بعض اللقيمات، والبعض يعطيه النقود، وفي النهاية هو ينام في أي مكان.. القرية كلها ملكه، وهو راضٍ بذلك تمامًا.

خليل يسير في الحقل مرورًا بالمزروعات المترامية هنا، وهناك، ولكن يلفت نظره تلك الزهور غريبة الشكل التي يقارب طولها نصف المتر بألوانها الزاهية.. هل هو نوع جديد من الخضار؟.. كان يقترب من الزهور ذات اللون البنفسجي الزاهي، ووضع يده عليها، وفي لحظة انفتحت الزهرة ليخرج منها ذلك السِّن المدبب ليخترق يد خليل في قوة وسرعة، وانتفض خليل وهو يصرخ ليسقط بجوار

الزهور الغريبة في تلك الفجوة الطينية.، وأخذ يصرخ متألِّمًا، وهو يخرج من الطين ممسكًا بيديه التي تورّمت في لحظات.

صاحب الأرض يشاهد خليل يصرخ فينهره ليبتعد خليل وهو يتألم ويقفز في جنون من اللدغة التي سببتها الزهرة.. أما الزهرة نفسها فبمجرد توجيه اللدغه للرجل فقد انتفضت بشكل غير طبيعي، وكأن ألف ألف فولت كهربي يسرون فيها، وأغلقت أوراقها مرة أخرى لتعود بشكلها الجميل، وكأن شيئًا لم يكن.

***

إنها السادسة مساء..

نوم عميق على غير العادة، لم أحلم بشيء، ولم يخاطبني شيءٌ، لا وجود لكائنات غريبة، ولا أي مؤثرات خارجية.. لقد ازدادت نسبة تدخيني للتبغ بشكل هيستيري.. هي ثاني لفافة تبغ لي في خمس دقائق، وأنا جالس على الفراش أحاول أن أرتِّب أي أفكار عمَّا حدث.

هل بالفعل كنا نحلم جميعًا؟ ومنذ متى يتشارك الجميع في حلم واحد؟ أي منطق هذا؟ هل هو نوع من الهلاوس؟ هل هو حارس المكان بالفعل مثلما يعتقد الكثيرون من المنقبين عن الآثار ؟

لا أعلم، ولكن المزية الوحيدة أنهم شاركوني كل شيء، وأصبحوا على دراية بكل شيء.

معنى ذلك أنني عاقل، والحمد لله ولم أصل إلى مرحلة الجنون المُطبِق.

طرقات متسارعة على باب المترل..

تُرى أي مصيبة قادمة؟

إنه أسامة وجهه شاحب بطريقة مخيفة ويرتعد.

- في إيه يا أسامة؟ إهدى كده، وعرّفني في إيه؟؟

كان يتنفس بصعوبة، وما فهمته منه أن أشرف مريض، ويحتاجني هناك.

وفي لحظات كنا نركض معًا باتجاه مترل أشرف.

وما فهمته من أسامة أنهم قد اتصلوا بالطبيب في المستشفى المركزي، وأنه في الطريق، وحينما وصلنا إلى المترل كان الطبيب بالفعل يستعدُّ للدخول.

أسامة ينهر أبناء أخيه حتى يبتعدوا عن الطبيب.

- اتفضل يا دكتور، اتفضل.

الطبيب يدخل الغرفة الموجود بها أشرف، وأنا خلفه تمامًا، ودقات قلبي تتسارع أكثر وأكثر.

زوجة أشرف تبكي، وهي تتحدث وسط نحيبها المتواصل..

- رجليه يا دكتور.

يرد عليها الطبيب محاولًا تهدئتها:

طيب اهدي يا ستي بس.. إن شاء الله خير.

قالها، وهو يكشف قدم أشرف، وبرد فعل تلقائي شهق الطبيب، وهو يتراجع إلى الخلف، ومن خلف الطبيب مددتُ رقبتي حتى أشاهد أشرف، والحق يقال إن الشكل كان غير طبيعي على الإطلاق.

- منذ متى وهو في الحالة دي؟

يرد عليه أسامة في ذهول:

- من امبارح بس يا دكتور.

مستحيل!!

نطقها الطبيب في دهشة حقيقية.

- دا تسمم بكتيري.. بس إزاي اللون الأخضر مسيطر على قدمه بالشكل ده؟

وفي ارتباك حقيقي نظر إلى أشرف.. الذي تشعر أنهِ في عالم آخر تمامًا، ووضع السماعة الطبية على صدر أشرف، وهو يسأله:

- حاسس بإيه يا أستاذ أشرف؟

ينظر له أشرف في إرهاق، وتعبٍ حقيقيين، وبكلمات يقتلها الوهن:

- حاسس إن روحي مسحوبة مني يا دكتور.

- ضربات قلبك بطيئة شوية يا أشرف فعلًا.

ونظر لزوجته وأخيه أسامة وهو يسألهما:

- هو اتعرض لصدمة من أي نوع أو بيعاني من أي أمراض؟

ردّت عليه زوجته في سرعة:

- أمراض إيه يا دكتور فال الله ولا فالك.. هو كان سهران مع أخوه وأصحابه إمبارح وبس، ونام لقيته سُخن، وبعتلك علطول في المستشفى.

الطبيب يعبث بلحيته في تفكير عميق:

- الحالة دي لازم يتعملّها تحليل فيروسات، وبسرعة.

تدخلت أنا أخيرًا في الحديث فلن أقف في دور المتفرج كثيرًا:

- ماشي يا دكتور.. هننقله للمستشفى حالًا.

وفي لحظات كنا نحمل أشرف، ونضعه في سيارة لنتجه به إلى المستشفى.

نظر أسامة لأخيه الذي تم وضعه في إحدى الغرف، وهُرع جميع الأطباء يطوفون حوله، وانسابت دموعه بشكل لا إرادي على وجنتيه.

أمسكتُه من كتفه وأنا أهمسُ له:

- أرجوك يا أسامة إمسك نفسك.. أرجوك مرات أخوك هنا، ومش عاوزين الموضوع يكبر.

ينظر لي في حُزن حقيقيٍّ:

- حاسس إننا السبب.. حاسس إن مكانش المفروض نروح البيت الملعون ده من الأساس، وحاسس إن ده عقابنا على تدنيس المكان ده يا نادر.

ربتُّ على كتفه، وأنا أحاول تهدئته، وبعدها بدقائق خرج علينا الطبيب الذي علمت اسمه منذ قليل.. ركضنا نحوه:

- طمّنا يا دكتور ياسر؟!.

الطبيب ينظر إلى طبيب آخر شابٍّ بجواره ثم ينظر لنا محاولًا إخفاء شيءٍ ما، وبسرعةٍ تحركت مع أسامة ومعنا الأطباء إلى خارج المبنى الطبي.. بعصبية سأله أسامة:

- في إيه يا دكتور متفهّمنا بالظبط.

ينظر له الطبيب، وهو متردّد للغاية:

- أفهمك إيه بس؟!.. أنا أول مرة أشوف حالة شبه دي، ودا مش رأيي لوحدي .. حتى الدكتور ماجد كلامه نفس كلامي.

يتناول الحديث الطبيب الشاب الجالس معنا:

- الحقيقة أنا أول مرة أشوف حالة مرضية جسمها بيخضر.. اللون الأخضر ده غريب جدًّااا، وعشان كده طلبنا تحاليل صورة دم كاملة.. محتاجين نفهم إيه السبب في ده؟

وانهار أسامة باكيًا، وأخذ يبكي مثل الطفل الصغير وهو ينظر لي متحدثًا:

- مش قلتلك،، قلتلك يا نادر دا عقابنا.

نظرتُ له بحنق حقيقي متمتمًا:

- الله يخرب بيتك هتفضحنا.

وبالطبع نظر لنا الطبيبان، وتحدث د. ياسر بعصبيةٍ:

- هو في إيه بالظبط.. لو الموضوع تطور عن كده، وعندكم أي معلومات، ومحتفظين بيها أنا هكون مضطر أبلّغ البوليس.

محاولًا تهدئة الأطباء:

- يا دكاترة مافيش أي حاجه دا كان موضوع ورث قديم، ولكن مالوش أي علاقة بحالة اشرف.

نظر لي الأطباء بتشكك، وذهبا بعيدًا ونظراهما تتفحصنا في عمق.

- إنت أكيد اتجننت.

كنت أتحدث بعصبية مع أسامة..

- إنت هتودّينا في داهية بكلامك ده.. أخوك كلها يومين، وهيكون كويس.. اجمد شوية، وبطّل اللي بتعمله ده.

ولم يجبني، تركته وأنا أسير وأدخّن لفافة تبغي بعصبية..

الأمور تزداد تعقيدًا بشدة.. ما الذي يحدث لأشرف؟ وكيف يحدث له ذلك من الأساس؟

قطعتُ أفكاري صوت سيارة الإسعاف التي تولول حاملةً مصيبةً جديدة.

ترى أي مصيبة هي القادمة؟

بسرعة دخلت السيارة، ونزل المسعفون وهم يحملون ذلك الجسد الذي يصرخ في هياج شديد وملابسه مهلهلة، وحينما نظرت إليه وجدته أحد الرجال المشردين أو كما أعرفهم باسم أحد المعاريض.

الرجل مُتسخ بشكل مُقزز، المسعفون يحاولون وضعه على المحفة، الرجل يقاوم.. الرجل ينتفض ثم يصرخ ثم يمسك بملابسه في هياج

حقيقي وسط صرخات الممرضات والنسوة الموجودات في المستشفى، ويقوم بتمزيقها تمامًا، وكانت الصدمة من نصيب الجميع..

الجسد الممتليء بالبثور المتورمة بشكل غريب.. بثور مختلفة عما نصاب به كبشر.. بثور لونها أخضر تحتل جسد الرجل المغطى بالأوساخ أساسًا.

الرجل ينبش بأظفاره في جسده في قوة، والمسعفون يحاولون السيطرة على حالة الهياج الغريبة.

وبعد محاولات مستميتة تمت السيطرة عليه.

بجواري وجدت أسامة الذي يتحدث في ذهول:

- يا نهار اسود دا خليل العبيط.. شايف يا نادر.. نفس لون البثور عند أشرف.

نظرت له:

- عشان تصدق إن الموضوع مالوش دعوة بالمقبرة، ولا أي شيء يمكن فايرس في الجو أو التهاب أو أي شيء تاني.

والحقيقة أنني كنتُ مخطئًا للغاية.

خلال سُويعات انتابت المستشفى حالة رهيبة من الجنون.. عدد المرضى أصبح عشر حالات ما بين أطفال وشباب وشيوخ.. نفس

الأعراض.. بثور غريبة، وتهيُّج في البشرة مع أورام، واخضرار غريب في لون الجلد.

مدير المستشفى يركض كالمجنون، وهو يطلب إمدادات من المستشفيات القريبة ومن وزارة الصحة، الممرضات والأطباء يرتدون الكمامات، والمشكلة الحقيقة أن ذلك المستشفى فقير في الإمكانات للغاية، وغير مجهّزٍ لمواجهة حالة التفشي الغريبة التي تحدث الآن.

– الحل إيه؟

قالها هشام الذي حضر بالطبع إلى المستشفى.. نظرت له نظرة معناها أن ما باليد حيلة:

– سوف ننتظر.

أسامة يضع يديه على رأسه، ولا يتحدث.. أما هشام.. فهناك شيء مختلف فيه.. كميات المياه التي يتناولها مع كمية السكريات لافتة للنظر.. لقد ترك كل شيء أكثر من مرة لشراء عصائر وحلويات ومياه.. إنها المرة العاشرة التي يتناول فيها المياه.

نظرت له بدهشة حقيقية، وأنا أسأله:

– مالك يا هشام؟

يُقارعني النظرات، وهو يرد في لا مبالاة:

ولا حاجه يا نادر.. أنا زي الفل.. حقيقي زي الفل.

ابتسامة غريبة ترتسم على وجهه، وهو يلتهم قطعة كبيرة من الحلوى، ويكمل:

– حاسس إني عاوز آكل حاجة مسكرة.. يمكن مهبّط بس شوية، وبشرب مياه عشان عطشان عادي يعني.

أجبتُه باستغراب:

– عطشان إيه واحنا في البرد ده؟ انت ناسي اننا في شتا؟ أمال في الصيف هتعمل إيه؟

ولم يُجبني هشام.. فقط ابتسم في بلاهةٍ، وهو يقضم قطعة حلوى أخرى، وفجأة عاد رأسه إلى الخلف في قوة لترتطم بلافتة زجاجية.

انتفض أسامة، وكذلك فعلت أنا، ونحن نمسك به في قوة:

– في إيه يا هشام؟.. في إيه؟

هشام يرتعد، ومن فمه تخرج إفرازات خضراء مقززة للغاية، وجسده يرتعد في قوة.

صرخنا بسرعة لكي يأتي لنا أحد الأطباء لإسعاف هشام، جلست بجانبه، وأنا أتحدَّث معه:

– هشام حاول تركّز، وفهّمني في إيه؟؟ هشام.

ومع انتفاضاته المستمرة، وأصوات ضغطه الهائل على أسنانه.. سمعنا بعضا منها يتحطم.

أسامة يصرخ في الأطباء، والممرضات للنجدة، هشام يخرج من فمه دماء محملة بلون أخضر غريب، وفي النهاية يحضر الأطباء مسرعين ليضعوه على المحفة ليصبح الرقم الجديد الذي ينضمُّ لحالات التسمم الغريبه التي تحدث، وليزداد الأمر تعقيدًا للغاية.

إنها الثانية عشرة مساء، وقد حضرت فِرقٌ من المُسعفين إلى القرية قادمين من وزارة الصحة.

لا تذهبوا بخيالكم بعيدًا وتتخيلوهم مرتدين تلك البزات الخاصة برُوَّاد الفضاء مثلما نشاهد في الأفلام الأجنبية.. هم مجرد أطباء عاديين للغاية، وبالطبع الشرطة كانت موجودة لمحاولة فهم ما يحدث.

الحالة رقم أربعين دخلت منذ قليلٍ..

الأمر الذي دعى إدارة المستشفى إلى إخراج الحالات المرضية الأخرى المُصابة بغير ذلك التلوث، ونقلهم لمستشفى آخر في قرية مجاورة، وبالطبع تم إخراج كافة المرافقين، ونحن منهم.

حاول أسامة بعصبية أن ينتظر، ولكن الأمن، وبمساعدة بعض الأطباء أقنعوه أن في خروجه مصلحة للمرضى، وخوفًا من انتشار

ذلك المرض للموجودين في المستشفى، وقبل أن نغادر المستشفى لمحت الطبيب ياسر.. فذهبت إليه مسرعًا:

- دكتور ياسر طمني.. نتائج تحاليل الدم ظهرت؟!.

وبشرود حقيقي أجابني:

- آه ظهرت، وطلعت نتايج كارثية.

ردّدت كلمته في تعجب:

- كارثية؟؟!.

أجابني بشروده:

- أيوه إحنا بنواجه تسمم من نوع جديد تمامًا.. التسمُّم ده بيهاجم كرات الدم الحمراء في الجسم زيه زي السرطان، ولكن بشراسة مُخيفة. والكارثة هو تحوُّل كريات الدم لناقلات الفيروس ده في الجسم المُصاب،والكارثة الأكبر هي توقف جهاز المناعة إنه يهاجم المرض ده.

ونظر لي في حيرة:

- دلوقتي قدرت حجم الكارثة؟.. إحنا بنواجه مرض جديد هو مزيج من البكتريا والجرثومة، وكل اللي شاغل بالي دلوقتي هو حاجة واحدة.. أنا علشان أكون صادق..أنا متخوف من كارثة كبيرة هتحصل.

سألته وأنا أبتلع لعابي في صوت واضح:

- هي إيه؟

أجابني :

- إن يكون المرض ده بيتنقل بالتنفس، وده مش ممكن التأكد منه دلوقتي.. بس هنعرفه قريب، ولو حصل فده معناه إننا قدّام كارثة بكل المقاييس.

وتركني وذهب بعيدًا، وقام الأمن بإخراجي خارج المستشفى.

أسامة أخذ عائلته، وربما عادوا للمنزل، ونسيّ وجودي من الأساس، ولا ألومه على ذلك، وعدتُ أنا إلى المنزل، وأنا أسال نفسي سؤالًا واحدًا:

- هل أنا بالفعل سبب لما يحدث هنا؟.

ولم يدم استفساري كثيرًا.. فبعد عشر دقائق انطفأت الأضواء، ومن مكاني على تلك الأريكة سمعت صوت الخطوات القادمة تجاهي.. خطوات واضحة.. تتقدَّم في ثبات نحوي.

تجمَّدتُ تمامًا، وأنا أرتعد.. حقًّا كنتُ أرتعد، وتوقفت الخطوات على بعد حوالي نصف متر مني، وساد صمت مرعب مر عليَّ كدهرٍ.

وأخيرًا..

تحدَّث شيء من الظلام.. صوت يخترق أعماق أعماق عقلي:

- حسنًا يا نادر.. أعتقد أن الوقت جاء لكي نُضيء لك الطريق الآن.

همست، وأنا أرتجف:

- مَن انت؟!

الصوت:

- سوف أشرح لك كل شيء، ولكن لا تُشعل قداحتك التي تفكر في إشعالها الآن لترى وجهي.

بالفعل تركت القداحة بسرعة من يدي.

الصوت:

- منذ البداية يا نادر وأنت تحاول أن تفهم ما حدث، ولك كل الحق أن تفهم خطورة الوضع الذي تمرون به الآن.

سألته بحيرة:

- مَن تقصد بكلمة تمرون به الآن؟ هل تعني أهل القرية؟

الصوت:

- كلا يا نادر انا أقصد جنسكم بأكمله.. أنا أقصد كل البشر.

سألته، وقد بدأت تزول الرهبة مني شيئًا فشيئا:

– مَن أنتم؟

الصوت:

– نحن.. نحن كنا نملك كل شبر في هذه الأرض قبل آدم بل، وحتى قبل الجن أنفسهم.. نحن من كنا نتحكم في هذه الأرض.. كنا أكبر قبيلتين يملكون الأرض، ومن عليها حتى جاءت إلينا أفواج الجن. ودارت بيننا الحروب.. حروب فقدنا فيها الكثير، والكثير.. فقدنا فيها علومنا وما كنا نملكه.. نحن (الحن والبن).

وأكمل.. لا تسأل أي شيء، الآن، واستمع لما سوف أحكيه.

هززتُ رأسي متمتمًا:

– حسنًا.

الصوت:

– لقد دارت بيننا وبين الجن بالفعل حروب رهيبة، ولكن نظرًا لكثرة أعداد الجن، وبمساعدة من الشياطين لم نستطع الاستمرار في الحروب بعدما تقلّصت مواردنا وفَقَدْنَا الكثير.. لقد كنا نملك العلم، ونملك القوة، ولكننا فقدنا كل ذلك في غمضة عين.. تشتّت شمل القبيلتين، وانطلق الحن إلى الشمال أو لنقل مَن تبقّى منهم، وانطلق من تبقّى من البن إلى الجنوب، واختفينا عن أنظار الجن، وقرنائهم من البشر، وأحطنا أنفسنا بدروع تحمينا من الجن، وشياطينهم، وأغلقنا

على أنفسنا كل الأبواب، وتركنا الجن، والشياطين يعيثون في الأرض فسادًا حتى جاء آدم، وعاش في الأرض وازداد نسلُه بتزاوجه مع القبائل المتبقية من الإنسان القديم.

قاطعته متعجبًا:

– هل كان هناك بشرٌ قبل سيدنا آدم؟!.

أجابني بعصبية:

– لقد طلبت منك عدم مقاطعتي، ولكنني سوف أجيبك، ولكن لا تقم بذلك ثانية.. نعم كان هناك خلق قبل آدم.. كان هناك خلق يُشبه البشر، ولكنه كان ضعيف التفكير لا يتحدث، ولا يتعلم إلا بصعوبة شديدة، ومع هبوط آدم حدث التزاوُج مع البقية الباقية منهم، وظهر البشر على شاكلتهم الحالية، واعتقدنا أن العالم قد نسينا تمامًا بإنسه وجنِّه وشياطينه، ولكننا كنا مُخطئين للأسف فقد حاولنا طمس وجودنا على الأرض بكل شكل ممكن.. فعلنا ذلك جاهدين بكل ما أُوتينا من قوة، وعلم، ولكن في النهاية تسرَّب خبر وجودنا من قبل على يد الجن الذين يتم تحضيرهم من خلال البشر.. أخبر الجِنُّ بعض البشر بحقيقة وجودنا على الأرض في الأزمان الغابرة، ولكن عدد البشر ممن يعلمون ذلك كان ضئيلًا للغاية حتى من تحدث في بعض كتبه عن ذلك تم اتهامه بالجنون.

إلى أن جاء عهد الفاحمين.. أحد أخطر المراحل التي مرّت على البشر في تعاملهم مع الجن والشياطين، وقام الجن، والشياطين بكتابة تاريخ الحن، والبن بشكل طلاسم في كتاب.. قام بكتابته رجل ضرير حكى فيه عن قومي الحن والبن، وعن الطرق التي من الممكن استخدامها لمحاولة الوصول إليهم..كتب كل ذلك بمساعدة من البشر الذين كانوا يعبدون الشياطين.. عبادة في الخفاء، وأطلقوا على ذلك الكتاب اسم "الكتاب الأعمى".

وأصبح ذلك الكتاب هو المرسوم الأساسي في عهد الفاحمين .. لقد كانوا قومًا فسدوا في الأرض، وبشكل رهيب، ومن كثرة شرورهم، وفي أماكنهم السِّرية للعبادة كانت تتجسَّد لهم الشياطين لتحتل أجساد البشر، ويتم تشنيع البشر، واستخراج ما يعلمونه من معلومات في شتى المجالات، وازدادت تلك الشرور حتى ظهر قوم "الفاليتر"، وهم من علموا بما يحدث في عهد الفاحمين، وكان هدف "الفاليتر" القضاء على الفاحمين لحماية أنفسهم.. فجماعة "الفاليتر" هي في الأساس جماعة الحن، وحينما علموا بما يحدث قرروا خوض الحرب ضد الفاحمين.

لم أستطع كتمان سؤالي، وتحدّثتُ مقاطعًا:

- أعلم أنك أخبرتني ألّا أُقاطعك، ولكن إذا كانت الحرب قد قامت بين "الفاليتر"، وهم جماعة تابعة للحن، فأين كان البن مما

يحدث؟ ولماذا لم ينضموا إلى "الفاليتر" حفاظًا على سِرِّهم؟ وهل "الفاليتر" هم من كانوا معنا في تلك المقبرة أم إننا كنا نهذي؟

الصوت:

- لقد كان يحكمنا حاكم رفض أن نتدخل في ذلك الشأن بأي شكل، رفض كل محاولتنا التدخل للانضمام إلى "الفاليتر" المحاربين، وتركناهم للأسف يواجهون الفاحمين بمفردهم، واستمرَّت الحرب لخمسين عامًا حتى انتصر "الفاليتر" على الفاحمين، وانتهى ذلك العصر تمامًا، وتحدّث البشر في تلك المرحلة عن حدوث وباء أفنى معه كل سكان تلك المدن، ولكن مع نهاية عهد الفاحمين اختفى الكتاب الأعمى الذي بحثنا عنه في كل مكان، وبحث عنه "الفاليتر"، ولم يظهر له أي أثر إلا عندما قرأتِ فيه أنت بتلك الطريقة الساذجة، ومع قراءتك له حدث الاختلال في التوازن الذي كنا نعيش فيه.. أنا أعلم أن ما أحكيه صَعْبٌ أن يفهمه بشريٌّ مثلك، ولكنني سوف أحاول شرحه..

أننا نعيش في بُعد مغاير للبعد الحالي الذي تعيشون فيه.. ألم أقل لك إننا كنا قبلكم بآلاف السنين على الأرض، وكنا متفوقين علميًّا للغاية حتى أبرز حضاراتكم الأرضية المتمثلة في أتلانتس لم تصل لما وصلنا له؟

بالمناسبة أتلانتس انتقلت لبُعدٍ آخر مثلما فعلنا نحن، ولكن لم يكن لهم سوى تلك الثغرة الوحيدة الخاصة بما حكى عنه أفلاطون، ونجحوا في إغلاقها وإخفاء كل آثارهم المتبقية ليظلَّ الأمر فقط كأسطورة.

لقد قُمنا بسدٍّ كل الثغرات بيننا، وبينكم إلا تلك الثغرة التي فتحتها أنت، وفتحت معها أبواب الهلاك على جنسينا.

أنا أعلم أنك التقيتَ "الفاليتر"، ومعك أصدقاؤك، ولكنهم لن يفهموا شيئًا لأنك الوحيد الذي قرأت في "الكتاب الأعمى"، وبمصادفة غريبة لا أعلم سببها قرأت بعض الطلاسم فيه، جعلتنا نواجه الكارثة التي تسببت فيها أنت، وبعد أن قرأت التعاويذ أرسلنا لك أحد جنودنا لتحاول حمايتك، ولتهديك الطريق، ولكن المشكلة هي أن ظهورنا على أرضكم لفتراتٍ طويلة يعرضنا للموت..لذلك كانت تظهر لك لدقائق معدودة، وتختفي..كنا نوصل لك رسائل من خلالها.

قاطعته بعد فترة طويلة من الصمت:

– ولكنك مع الآن تتحدث منذ فترة طويلة فماذا سوف يحدث لك؟

ساد صمت ثقيل.. ثم تحدث أخيرًا:

الصوت:

– سوف تنتهي حياتي، وذلك بدأ يحدث بالفعل، ولكن ذلك غير مهم الآن.. استمع لي ولكل حرف سوف أقوله لك..

إن ما يحدث الآن من تفشي للأمراض سببه بذور وضعها الفاحمون لكم حينما هبطتم إلى معبدهم في جوف الأرض.

لم أستطع الصمت كالعادة، ووجدتُ نفسي أسأله:

– ألم تقل إن عهد الفاهمين انتهى منذ زمن بعيد؟ فكيف لي أن أنزل إلى معبدهم، وهم في الأساس انتهوا من الأرض منذ زمن بعيد؟

أجابني في عصبية شديدة:

– كنت أعلم أنك لن تفهم.. ما حدث يا آدمي بقراءتك في الكتاب الأعمى هو حدوث اختلال في حواجز الزمان والمكان.. لقد خضتُ تجربة حقيقية، وما شاهدته كان حقيقيًّا، وما حدث لك في القاهرة كان حقيقيًّا، وتلك السيدة العجوز التي لقت حتفها كان ذلك بسببك أنتَ، وبسبب ما فعلته بقراءتك الخاطئة، والمشردون في الشوارع انجذبوا لك بسبب ما قرأته.. لا نعلم ماذا قرأت أيضًا جعل الأمور تسوء بتلك الكيفية، ولكن من الواضح أنك قد قمت بالجمع بين أكثر من تعويذة، وقرأتها بترتيب معين أدَّى إلى حدوث كل ذلك.

كان يتحدث، وصوته يخفُت تدريجيًّا، وصاح فيَّ:

– اسمع ما سوف أخبرك به.. فوقتي قاربَ على النفاد.. يجب أن تقضي على تلك البذور التي انتشرت، فهي تحمل وبالًا لا قبل لكم به.. يجب أن تقضي عليها بحرقها تمامًا.. تمامًا ولا تترك لها أي أثر.

سوف أُحدِّد لك أماكنهم، وبالفعل وصف لي أماكن البذور التي نبتت الآن، وحكى لي كل شيء حدث لأشرف والخليل المعروض،

وكيف أن هشام تلصَّص على زوجته في الصباح وشاهدها وهي تضع البذور في الأرض، وحينما خرج بعدها تعرض للمرض الذي تحمله تلك الزهور.

استمع لي جيدًا.. تلك الزهور في حقيقتها أخطر مما تتخيّل، وليس لديَّ وقت لأشرح لك الآن، ولكن كل ما عليك هو التخلص من الزهور، وأي بذور تجدها.. يجب أن تفعل ذلك في أسرع وقت.. كان صوته يخفت أكثر وأكثر، وكأنه يعاني ألمًا شديدًا.. لقد أفنيتُ حياتي حتى أعطي لبني جنسك الحياة.. فلا تُضيِّع ذلك هباء.

كنتُ أردّد في ذهول:

– حسنًا سوف أنفّذ كل شيء، وماذا عن الكتب الموجودة بالقاهرة.. ماذا أفعل بها؟

الصوت بخفوت شديد:

– سوف تفهم لاحقًا.. فقط لا تخبر أي أحد بمكانها، وتخلَّص من البذور ليعود كل شيء لطبيعته.

وانتهى صوته، وهو يكرر لا تخبر أحدًا، أي أحد، بمكان الكتاب.

ومع نهاية الصوت حدثت فرقعةٌ مكتومة، وأعقبها عودة الأضواء.

حسناً لقد اتضحت الصورة، وعلمت ما لا يعقله أي بشر..

وفي سرعةٍ أحضرت جركن كيروسين، وذهبتُ إلى الأماكن التي حدّدها لي.

لقد نسيتُ أن أسأله عن اسمه!!!

على ضوء الكشاف الصغير وجدت الزهور بألوانها الغريبة.. منتفخة من منطقة الوسط، وكأنها تحمل بداخلها شيئًا في حجم كرة القدم.. كنت أقتربُ في هدوء، وبمجرد اقترابي منها انتفضت الزهور في حدة.. حتى أنني كدتُ أسقطُ على ظهري من ردة الفعل.. فلأول مرة أجد نباتًا يتحرك بهذه العدوانية.

الزهور النابتة فيه تفتحت في شراسةٍ، وأنا لم أُضيِّع الوقت، وقذفتُ عليها الكيروسين، ومعها عود الثقاب، وأشتعلتُ الزهور في لحظة.

هل أسمع صرخات مكتومة؟

مستحيل

الزهور تتلوى، وكأنها ثعابين، وذلك الانتفاخ يتحرَّك، ويتلوّى معها،وفي لحظة انفجر ذلك الانتفاخ ليخرج منه سائل أحمر قاتم.

ولكن هذا ليس كل شيء.. فوسط السائل اللزج كان هناك شيء يتلوّى وسط النيران، شيء يُشبه جدًّا!!!!! شكل طفل..

طفل بشري ..

تمامًا...

لم أُضيِّع الوقت لأفحص ما أراه، وسكبت كيروسين أكثر حتى اشتعلت النيران أكثر وأكثر، وركضتُ ناحية المكان الآخر الذي وصفه لي ذلك الشيء.. لأجد نفس الزهور، وكررتُ الأمر تمامًا بالكيروسين، واشتعل كل شيء.

والكارثة أن النيران امتدَّت إلى الأخشاب بجوار منزل هشام، وبدأ المنزل في الاشتعال، وشاهدني أحد سكان القرية، وأنا أسكب الكيروسين، واعتقدَ الجميعُ أنني كنتُ أشعل النيران متعمدًا في منزل هشام، وخرج الجميع يركضون خلفي، وأنا أركض كالمجنون.

لقد نفّذتُ ما طلبه مني الشيء.. نفّذته، ولكن القدر لعب لعبته، ولم يتم كل شيء بسهولة.. كنتُ أركض هربًا من أهل البلد الذين يعتقدون أنني أشعلتُ النار متعمدًا في المنازل، ووجدتُ نفسي على إحدى الطرق غير الممهدة.

إصرار أهل القرية رهيب على اللحاق بي، وأعدادهم تتزايد، وليس أمامي أي محاولة للاختباء فالبلد كلها بلا مبالغة تعتقد الآن أنني سبب كل الكوارث التي تحدث، ومع انحرافي لليسار في طريق آخر انزلقت قدمي في كومة كثيفة من الطين، وأظلمت الدنيا أمامي.

***

– حسنًا، هل هذا كل شيء؟

قالها الرجل الوقور الجالس أمامي، وهو يُعدّل من وضع عويناته.

– إن ما حكيته منذ ستة أشهر لم يتغيّر يا أستاذ نادر..نفس القصة الغريبة التي لا يُصدِّقها عقل.. قصة مكانها الطبيعي أن يتم تحويلها إلى مسلسل خيال علمي أمريكي.. إن كنت تعتقد أنك بتلك القصة سوف تفلت من العقاب فأنت واهمٌ، وإصْرارك على إنكار تسبّبك في وفاة عشرة أشخاص، وإشعال النيران في عدد من المنازل داخل قرية.. لن يفيدك صدقني.

بهدوء أجبته:

– لقد أخبرتُك بالحقيقة التي كنتُ أتمنَّى ألا أُخبر بها أحدًا، ولكنني أخبرتُك الحقيقة.

في غضبٍ نظر لي:

– حسنًا، أنت من أردت لذلك أن يحدث.

وفي غضبٍ ضغط الزِّرَّ على مكتبه ليدخل أحدُ الرجال المفتولي العضلات مرتديًا ذلك الزِّيَّ الأبيض.

– يا عصام.. خُد الأخ نادر، ورجّعه مكانه لأن شكله لسه معقلش، ولسه مُصَمّم على قصته الخايبة.

وفي هدوء كانت الابتسامة المذهولة تملأ وجهي، وما بين الحسرة والألم.. كنتُ أقرأ الاسم الظاهر على اليافطة الصغيرة الموضوعة على مكتب/ دكتور عصمت فوزي مدير مستشفى الأمراض العقلية.

خمس سنوات مضت على وجودي هنا.. تغيَّر كل شيء، ونسيت كل ما حدث حتى أنني أيقنتُ أنني بالفعل مريض نفسي، وكنتُ أستحقُّ العلاج، وكل ما مررتُ به هو مجرد هلاوس، وفي النهاية تم الإفراج عني بعد أن ثبت للجميع أن شخصًا مجنونًا هو من قام بإشعال النيران في قريته، ولكن تم التكتُّم على أمر الجثث في المستشفى، وخرجت الجرائد بتفسيرات عن تفشّي مرض غريب، ونجحت وزارة الصحة في السيطرة عليه.

بعد خمس سنوات كاملة قضيتها كحقل تجارب لعلاجات المرضى النفسيين والعقليين.. خمس سنوات فقدتُ فيها عقلي الحقيقي.. الذي

تحمَّل الكثير، وعدتُ إلى شقتي، وحضر لي محمد، ووليد.. الصديقان الغاليان هما من تذكراني وحضرا لي لاصطحابي إلى المنزل.

رحلت أمي، وانقطعت عني عائلتي فقد أصبحت وصمة عار بالنسبة لهم.

عدتُ إلى شقتي، ومعي صديقاي، وما هي إلا دقائق، وسمعنا تلك الأصوات الغريبة التي تصدر من الغرفة المجاورة لنا، وبعدها اهتزَّت الجدران في قوةٍ، وأصوات غريبة تنادي باسمي.. أصوات قادمة من كل صوبٍ..

وليد يرتجف، ومحمد مذهول، وكلاهما ينظر لي، وفي لحظةٍ غادرنا المنزل راكضين، وعلى باب المنزل.. كان المنظر الذي لم ولن أنساه ما حييتُ..

المئات من المشردين.. واقفين أمام المنزل، وهم ينظرون لي، ويبتسمون جميعًا.

المئات من المعاريض يبتسمون لي في شكلٍ يُثير الرعب في أعتى النفوس..

لقد كنتُ أعتقد أن ما مرَّ بي قبل خمس سنوات هو كابوس، وأن ما حدث هو تأثيرات نفسية لمريض عقلي، ولكنني أيقنت الحقيقة الآن وجود هؤلاء المعاريض القادمين من كل صوب.

وبعد أن أحاطوا بي من كل جانبٍ، وأصبحت في وسطهم تمامًا وكلٌّ منهم يهمس بكلماتٍ غريبة..

تأكدت أنني لم أكن أهذي، وأن ما حدثَ في الماضي هو مجرد البداية.. بداية لقادم سوف يُغير المتبقي من حياتي إلى الأبد.. لأنني بالفعل بما حدث، وسوف يحدث.. سوف أستحقُّ لقب عنوان تلك الرواية التي بين أيديكم.

سوف أستحقُّ وعن جدارة ..

لقب

(الملعون)

الملعون

كانت تنتفض في عنفٍ، وهي تُحدِّق في شيء ما خلفي، وتصرخ في عنف.

لقد أصبحت الحالة أصعب بكثير، ففي لحظات معدودة كانت السيدة ممددة على الأرض وجسدها مُتشنِّج تمامًا، وتصرخ بمنتهى العنف، وهي تقول باستمرار:

- خرّجوها.. مش عاوزاها قدامي.. خرّجوها..

أما الحاج محمد فجلس بجوارها، وهو يقرأ القرآن، ويحاول أن يهدّئ من روع السيدة التي ما زالت تصرخُ، وتتلوّى في عنف شديد، وبسبب حالتها الغريبة أخذت تقضم شفتها السُّفلى التي أخذت تنزف بغزارة، وزوجها يبكي بجوارها، وهي تبتسم، وتنظر لي في جنونٍ حقيقي،وأخذت تضحك بهيستريا، وتضحك، وفي لحظةٍ وكزت الحاج محمد في صدره بقوة، وهبَّت واقفةً أمامي، والدماء تُغطي فمها تمامًا، وتنساب على رقبتها، وهي ما زالت تضغط أكثر وأكثر على فمها بأسنانها، وتكاد تلتهم شفتيها التهامًا

محمود صلاح



كاتب مصري

حاصل على دكتوراه في الإعلام

باحث في مجال الميتافيزيقا

دار اكتب  للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية - القاهرة - مصر

E-mail : daroktob1@yahoo.com

01144552557



9789774884993

Cover by ahz_art